الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٢٢ — ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 122.

Lundi-4-11-1935

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٢٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ شعبان سنة ١٣٥٤ — ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

فى الجمـــال . . .

بحث تحليلى نهديه الى الآنسة شرلوت
واصف ملكة الجمال العالمى فى هذا العام

ما هو الجميل ؟ الجميل فى اجماع الناس هو ما ينشئ فى الذهن فكرة سامية عن الشيء فى الطبيعة ، أو عن الموضوع فى الفن ، فيبعث فى نفسك عاطفة الاعجاب به . ولكن ماهى على التحديد الصفات التى تبعث اللذة وتثير الاعجاب فى بدائع الفن أو فى روائع الطبيعة ؟ ذلك ما نحاول شرحه فى شيء من الافاضة

الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما فى النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس ؛ ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً مافى ذلك شك . ففى أى الجهات إذن تتعرف النفس والعاطفة والحواس وجوه الجمال ؟ إن الخصائص المميزة للجمال هى القوة ، والفِرَة [1] ، والذكاء ؛ والمراد بالقوة شدة العمل وحدته ، وبالفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل . ولا جدال فى أن الحواس ليست كلها أهلا لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يثير الدهش والاعجاب واللذة . أما

(١) الفرة : مصدر وفر الشيء اذا كثر واتسع وتم وكمل

الانفعال الذى يأتيك عن طريق الشم والذوق واللمس ، فلا ينشأ عنه فكرة ولا عاطفة ، لأن الطعوم والروائح ، والملوسة والخشونة ، والصلابة والليونة ، والحرارة والبرودة ، أحاسيس بسيطة عقيمة قد توقظ فى النفس ذكرى خابية أو عاطفة غافية ، ولكنها لا تنتج واحدة منهما . وإذا كان البصر آلة الجمال الحسى أو المادى ، والسمع آلة الجمال العقلى والخلقى ، فان فى هاتين الحاستين الدليل على خصائص الجمال الثلاث ، ذلك لأن أجمل ما يؤثر فى العين والأذن هو ما بلغ من القوة والفرة والذكانة أسمى غاية ؛ وجمال الأشياء إنما يتفاضل فيها بمقدار ما يشتمل عليه من هذه العناصر ؛ وكلما نقص عنصر منها أو قل ، ضعف فينا الشعور بالجمال على نسبته .

ما الذى يجعل لعملى النفس وهما الفكر والارادة هذه الصفة التى تملك اللب فى العبقرية والفضيلة ؟ لا شىء غير القوة والفرة والذكاء ، سواء أكان ما تعجب به براعة الصنع أم مهارة الصانع . إن الطيبة فى ذاتها فضيلة ، ولكنها لا تكون جميلة إلا إذا اقترنت بالقوة ؛ فسقراط فى الحكماء ، وعمر فى الخلفاء ، مثلان سائران فى جمال الخلق ، ولكنك إذا جردت أخلاقهما مما ينبىء عن القوة وخواصها من الصدق والصبر والشجاعة والسمو ، ذهب الجمال وبقيت الطيبة . إذا صنعت المعروف فى صديقك وعدوك كان الفعل كريماً فى الحالين ، ولكنه فى الصديق عادى لأنه بسيط سهل ، وفى العدو ممتاز لأنه عظيم شاق ؛ وفى هذه القوة التى تقتضيها تلك المشقة كان جماله . إن وفاء السموءل بدروع امرىء القيس فضيلة ، ولكن اقترانه بالقوة على تضحيته بابنه جعله آية فى جمال الوفاء ؛ وإن تنفيذ بروتوس عقوبة الموت على أحد المجرمين عادة مألوفة ، ولكن تنفيذه إياها على بنيه الذين ائتمروا بروما مثل نادر لجمال البطولة . وموقف هكطور مع أندروماك ، وموقف أسماء بنت أبى بكر مع ابن الزبير لا يقلان جمالاً عن ذينك الموقفين . وسر الجمال فى كل ذلك إنما هو تلك القوة الخارقة فى تغليب فكرة الواجب على عاطفة البنوة

* * *

كذلك الحال فى أعمال الذهن ؛ فحل معضلة فى الهندسة ، واكتشاف عظيم فى الطبيعة ، واختراع عجيب فى الميكانيكا ، ونظام محكم الوضع فى التشريع ، وقطعة قوية التفكير والتصوير فى الأدب ، كلها أعمال جميلة ؛ لأنها تستلزم نصيباً موفوراً من الذكاء ، وقوة عظيمة فى التفكير ؛ وشعور المرء بالجمال فيها ، موقوف على ادراك القوة التى تقتضيها ؛ فالعامى أمام الأحرف الهجائية ، والتلميذ أمام منطق أرسطو ، لا يجدان فيهما من الجمال ما يجده الفيلسوف ، لأنه يدرك ما اقتضياه وتضمناه من الذكاء والقوة

أما فى البلاغة والشعر فأبين خصائص الجمال الذكاء والفرة ؛ فتزاحم العواطف ، وتكاثر الصور ، وتوافر الأفكار ؛ ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذى يحييها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالاعجاب ، وذلك الاعجاب الذى نحسه هو عاطفة الجمال

* * *

وشأن الجمال فى المادة لا يختلف عن شأنه فى الفكر والعاطفة ؛ فانك إذا رحت تبحث فى الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة ، أو الفرة ، أو الذكاء . ففى الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ، ففى جمال الأسد القوة ، وفى جمال الطاووس الفرة ، وفى جمال الانسان الذكاء . ولا أقصد ذكاء الانسان فى نفسه ، إنما أقصد ذكاء الطبيعة [1] فى تهيئته وتثقيفه ؛ وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملاءمة وسائلها لغاياتها . فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل فى الزوجين ، وتباين مقياس الجمال فى الجنسين . أرادت من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمى زوجه ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضى تلك الارادة : تركيب وثيق محكم تتم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الأعضاء متناظر الشكول متوازن الأوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أى صورة ، وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتختلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف فى الانسان مزايا الجمال المذكر ؛ فاذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهى تكونه عرفت ما تفعل ، وفعلت ما تريد

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

(١) نريد بالطبيعة ما يقابل الفن ؛ والفن صنع الانسان كما أن الطبيعة صنع الله

فوق الآدميـــــة

الاسراء والمعراج

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

من أعجب ما اتفق لي أني فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقله فتعسَّرَ عليَّ وصُرِفتُ عنه بألم شديدٍ اعتراني ونالتني منه ثَقْلةٌ في الدماغ (١) ؛ ثم كشفه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ ، فاذا قلمي ينبعث بهذه الكلمات :

كيف يَستوطِيءُ المسلمون العجزَ ، وفي أول دينهم تسخيرُ الطبيعة ؟

كيف يَستمهِدون الراحةَ ، وفي صدر تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى ؟

كيف يَركَنُونَ إلى الجهل ، وأولُ أمرهم آخرُ غايات العلم ؟

كيف لا يحملون النورَ للعالَم ، ونبيُّهم هو الكائنُ النورانيُّ الأعظم ؟

***

قصة الاسراء والمعراج هي من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا النجم الانسانيُّ العظيم ، وهذا النور المتجسِّد لهداية العالم في حَيرة ظُلماته النفسية ؛ فان سماءَ الانسان تُظلِم وتُضيء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله تعالى قد خلق للعالم الأرضي شمساً واحدةً تُنيره وتُحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره ، بيدَ أنه ترك لكل انسان أن يصنع لنفسه شمسَ قلبه وغمامَها وسحائبها وما تُسفِرُ به وما تُظلم فيه . ولهذا سُمي القرآن نورا لعمل آدابه في النفس ، ووُصف المؤمنون بأنهم « يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم » ، وكان أثر الايمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نورا يمشون به

ولقد حار المفسرون في حكمة ذكر « الليل » في آية « الاسراء » من قوله تعالى : « سُبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركْنا حوله لنُريه من آياتنا » . فان السُّرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلا ؛ والحكمة هي الاشارة إلى أن القصة قصةُ النجم الانساني العظيم الذي تحول من انسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة ، ويتمم هذه العجيبةَ أن آيات « المعراج » لم تجئْ إلا في سورة « والنجم »

وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارةٌ إلى قصة النجم ، تكون الآية برهان نفسها ، وتكون في نَسَقها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية . فاذا قيل إن نجما دار في السماء ، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تعجز الحساب ، فهل في ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شك أو نظرٌ أو تردد ؟ وهل هو إلا من بعض ما يسبِّح الله بذكره ؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التي يراها اتصالَ الوجود بعضه ببعض ؟

وأنا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى : « لنُريه من آياتنا » مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يخيَّل اليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فانها بهذه العبارة نصٌّ على اشراف النبي صلى الله عليه وسلم فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواس مما مرجِعُه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه ، بخلاف ما لو كانت العبارةُ (ليرى من آياتنا) فان هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها ، فيضطرب الكلام ويتطرق اليه الاعتراض ولا تكون ثمَّ معجزة . وتحويلُ فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائي من شكل إلى شكل كما ستعرفه ، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل ؛ فتبارك الله مُنزِلُ هذا الكلام !

وإذا كان صلى الله عليه وسلم نجما إنسانياً في نوره فان يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهيأة في الدنيا لمثل حالتها في الأخرى ؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك . فقُل الآن : أيُعترضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة . . . ؟

ومن ثمَّ كان الانسان إذا سما درجةً واحدةً في ثبات قواه الروحية ، سما بها درجاتٍ فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِّرت له المعاني التي تسخِّر غيره من الناس ، ونشأت له نواميسُ أخلاقيةٌ غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشيء من

(١) لما اعتراني هذا كتبت للأستاذ الزيات أخبره به ليعلم أن المقال سيتأخر عن موعده

الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه . فالنارُ مثلاً إذا هي تضرّمت أوجدت الاحراق فيما يحترق ، فان وضع فيها مالا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها

وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلُها في إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة ، وبهذا يقال إنها خرقت العادة ؛ ومن النور نورٌ لا يشفُّ له غيرُ الهواء ، ومنه أشعة (رنتجن) التي تشف لها الجدرانُ والحجب ؛ فهذه معجزة في ذاك

* * *

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانه إنسانٌ آخر بنواميسَ تجعله أقربَ إلى الملائكة في روحانيتها ؛ وما ينزل إنسانُه الظاهرُ من الانسان الباطن فيه إلا منزلةَ من يتلقى ممن يُعطى . فذاك الباطنُ هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا ، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمالُ في المثل الانساني الأعلى ، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تضنيه ولا تغيره ولا تعجزه

فحقيقةُ النبوّة أنها قوةٌ من الوجود في انسان مختار جاءت تصلح الوجود الانسانيّ به لتُقرّ في هذه الحيوانية المهذّبة مثلها الأعلى ، بدلالتها على طريقها النفسيّ مع طريقها الطبيعي ؛ فيكون مع الانحطاط الرقيّ ، ومع النقص الكمال ، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة ، ومع الظلمة المادية الاشراقُ الروحاني

وما المعجزات إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانها الظاهر . ومن الذي ينكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجاز للعقل البشري ؟ وهل ينكر اليوم أحد شأنَ هذه القوة في (الراديو) حين مسته فجعلت الكلمة التي ترسل بين الشرق والغرب ، كالكلمة بين اثنين يتحدثان في مجلس واحد ؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسي وما يبصره النائم وما يسمعه وما ينكشف له مما وراء الزمان والمكان ؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسليط الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة على الذات الظاهرة المقيدة بحواسها المحدودة ، فتطغى عليها فتصبح الحواس مطلقة شائعة في الوجود بمقدار مافيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها ، وعلى نحو من ذلك يتصلُ الرجل الروحانيُّ بذاته الباطنة ، فيوقع شخصه الظاهر في الاستهواء ، فينكشف له الوجود ويبصر ما يقع على البعد ويرى ما هو آت قبل أن يأتي . وما الكون في هذه الحالة إلا كالمشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب : قد آتيتك نوراً تنظر به جمالي

* * *

وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها . وكل ذلك أول البرهان الذي سَيُلْزِمُ الفم فيضطره في يوم ما إلى الاقرار بصحة الاسراء والمعراج . .

ونحن قبل أن نبدي رأينا في القصة نُلمُّ بها إلمامةً موجزة ؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير فجاءت فنوناً وأنواعاً من طرق شتّى حتى جمعها بعضهم في جزءين(1) ، وما تحتمل كل ذلك ولا بعضه ؛ ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر ، متى فارت فَوْرَها استحدثتْ من كل عبارة عبارة أخرى ، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة ، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يُمَدُّ من يمينه ويساره

ولا يرون بذلك بأساً فانهم يَشُدُّون به الرأي ويضاعفون منه اليقين ، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى ، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه فلا حَرَجَ أن يؤيد القولُ بعضُه بعضاً باجتهاد في عبارة ، واستنباط من أخرى ، وزيادة في الثالثة — مما هو بسبيل منها ، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية ؛ إذ تتعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة ، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف . والقَصصُ الديني في هذه اللغة العربية فنّ كامل قائم بنفسه لا يُبدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب

هذا في متن القصة ؛ أما في واقعها فقد اختلفوا اختلافاً آخر ؛ هل كان الاسراء والمعراج يقظةً أو مناماً ، وبالروح وحدها أو بالروح والجسم معاً ؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليل القاطع على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بشيء من ذلك فلم يعيّن لهم وجهاً من هذه الأوجه . والحكمة في ذلك

(1) قال الذهبي : إن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الاسراء في جزءين

أن عقولهم لم تـكن تحتمل الادراك العلمى الذى أساسه الـكهرباء والأثير . .

والخلاصة التى تتأدّى من القصة : أنه صلى الله عليه وسلم كان مضطجعاً فأتاه جبريل فأخرجه من المسجد فأركبه البُراق فأتى بيت المقدس ثم دخل المسجد فصلى فيه ، ثم عرج به إلى السموات فاستفتحها جبريل واحدة واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وصعد فى سماء بعد سماء إلى سِدْرة المنتهى ، فغَشيها من أمر الله ما غشيها ، فرأى صلى الله عليه وسلم مظهر الجمال الأزلى ، ثم زُجَّ به فى النور فأوحى الله إليه ما أوحى

أما وَشى القصة وطرازُها فبابٌ عجيب من الرموز الفلسفية الانسانية التى يُرمز بها إلى تجسيد الأعمال فى هذه الحياة، تكون تعباً وتقع فائدة ، أو تُلتمس منفعة وشهوة وتقع مضرَّةً وحماقة ، ثم تفنى من هـذه وتلك القشور الزمنيةُ التى توهّمها أصحابها ، وتخلد الصور الأبدية التى جاءت بها حقائقها

ومن هذه الرموز البديعة قوله : فجاءنى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل أخذت الفِطرة . وإنه مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون فى كل يوم كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعَفُ لهم الحسنة سبعمائة ضِعف . ثم أتى على قوم تُرْضَخُ رءوسُهم بالصخر ، كلما رُضِخَت عادت كما كانت ولا يُفـتَّر عنهم من ذلك شىء . فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصـلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نضيج فى قِدر ، ولحمٌ آخر نىءٌ فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيءُ الخبيث ويَدَعون النضيج . فقـال ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تـكون عنده المرأةُ الحلالُ الطيِّب فيأتى امرأة خبيثة ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجـلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حُزمةً عظيمةً لا يستطيع حملَها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل تـكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها . ثم رأى نساءً معلَّقاتٍ بثديّهن ، فسأل ، فقال جبريل : هؤلاءِ اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم

***

ونحن على الرأى الذى عليه جمهور العلماء من أن الاسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذى سنبينه . ويثبت ذلك قوله تعالى فى سورة (والنجم) : « إذ يغشى السِّدرةَ ما يغشَى ، ما زاغ البصرُ وما طغى » . فلا يكون البصر يزيغ ويطغى إلا فى الجسم ولا ينتفى عنه ذلك إلا وهو فى الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب فى قوله (وما طغى) ؛ فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شىء ، إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التى لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاغ البصر بكونه مقيد الحاسة ، ولاطغى بكونه مطلق الخيال ، بل كان كما يُريه الله من آياته ، أى كان حقيقةً كونيةً فى غير حالتها الأرضية الناقصة

والذين قالوا إن الاسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبى صلى الله عليه وسلم ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » وقد خلط المفسرون فى هذا أيضاً ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » وهى التى تكون مناماً ، لنفى تأثير الحواس على الرائى واثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً فليس نائماً كالنائم ولا مستيقظاً كالمستيقظ

وفى أساس القصة جبريل والبراق ؛ وهما القوة الملائكية ، والقوة الطبيعية ، أو الروح الملائكى والروح الطبيعى ، ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزا إذ لا يأبى للعرب أن يفهموا ما يراد منه وعندنا أنه سمى البراق من البرق ، وما البرق إلا الـكهربائية ، وهذا هو المراد منه . فتلك قوة كهربائية متى نَبَـضت جمعت أول العالم بآخره . وهذه هى الحـكمة فى أن آية الاسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شىء إذلم يكن محمولاً إلا على الروح الأثير

وما دامت القوةُ الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له صلى الله عليه وسلم فلا معنى لأن يكون ذلك للروح وحدها ، بل اجتماعهما معاً فى القصة دليل على أن سر المعجزة إنما كان فى تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين ؛ فيتحول فى صورة كونية ملائـكية بين سر الملك وسر الطبيعة ، وحينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواس ولا أحكام المادة

ومن الممكن أن تتحول الأجسام إلى حالتها الأثيرية فى بعض

الأحوال الخارقة ، وبهذا يعلَّل طيُّ الأرض لبعض الروحانيين وتعلل خوارق كثيرة مما يحدث في استحضار الأرواح لهذا العهد ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان يصنعه « لاهوديني » الأمريكي إذ كانوا يغلِّلونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛ ويحبسونه في السجون المحصَّنة يقوم عليها الحراس وتُمسكه فيها الأبواب والجدران ، ثم يجدونه في بعض الفنادق

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه فإن تركيب الطبيعة ردٌّ عليه ، ونقصه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيل على الأعمى هو أيسر الممكنات على البصر

فأنت ترى أن ذكر البراق والملك في أساس قصة الاسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة وهو عينه صلتها بالبرهان العلمي ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير

***

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرق وينكشف ويستضيء كلما سما الانسان بروحه ، ويغلظ ويتكاثف ويتحجب كلما نزل بها ، وهي من ناحية النبي صلى الله عليه وسلم قصةٌ تصفه بمظهره الكوني في عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه ، هي كالدرس في أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماويٌّ فوق هذه الدنيا ليشهد ببصيرته أنوار الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسُّد الأعمال الانسانية في صورها الخالدة ؛ فيكون بتدبره القصة كأنما يصعد إلى السماء وينزل ؛ فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة فيدفع عن نفسه بذلك وتعقُّد الأخيلة الذي هو أساس البلاء على الروح

ومتى استنار القلبُ كان حياً في صاحبه وكان حياً في الوجود كله . ومتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الانسان وبين الله إلا حياةٌ هي الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هي الرحمةُ والحب ...

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

إلى خ . خ . د : من أجلك وصفت حبي أنا في مقالات (الجمال البائس) وفي السنة الماضية كتبت مقالة (سمو الحب) . وهي في الرسالة فارجع إليها ؛ ثم إن تعرض لك إبليس بعد أن تكون قرأت هذه المقالات وتدبرتها فاشكه إلى أنصفك منه على شرط أن تشكو إلى البوليس تلك المرأة التي يظهر لك بوجهها .... كما يؤخذ من كتابك

الرافعي

١ – مدينة الزهراء

وحياتها الملوكية القصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا منذ حين في بعض الأنباء الخارجية أن بعض الهيئات الأثرية في اسبانيا تعني بالبحث لاكتشاف معالم مدينة الزهراء الأندلسية ، وأنها قد وفقت بالفعل إلى اكتشاف بعض أسس قديمة في ضاحية قرطبة يظن أنها من أسس قصر الزهراء ؛ وجدير بمثل هذا النبأ أن يثير شجناً في نفس أولئك الذين يستعرضون تاريخ الأندلس ، وتاريخ قاعدتها الملوكية الشهيرة التي غاضت من صفحة الوجود حتى لم يبق من أطلالها اليوم ما يدل على مواقعها ومعالمها

كانت الزهراء من أعظم القواعد الملوكية التي عرفها التاريخ ، ولكنها لم تعمر طويلاً ولم تقم في تاريخ الأندلس بدور ذي شأن ، ولم ينزلها سوى مؤسسها الناصر وولده الحكم وابنه المؤيد ، ولم تعمر كقاعدة ملوكية أكثر من نصف قرن ؛ ومن غرائب القدر أنه في الوقت الذي أكملت فيه الزهراء في عهد الحكم المستنصر ، وضعت أسس قاعدة ملوكية إسلامية جديدة قدر لها أن تؤدي في تاريخ الاسلام وتاريخ الحضارة الاسلامية أعظم دور ؛ تلك هي القاهرة المعزية التي أخذت تتفتح عظمتها وبهاؤها في نفس الوقت الذي ذوت فيه عظمة الزهراء وعصفت بها حوادث الدهر ؛ ولم تكن الزهراء أول قاعدة ملوكية في الأندلس ، ولم تكن القاهرة أول قاعدة ملوكية اسلامية في الشرق أو في مصر ، فمن قبل أنشأ هشام بن عبد الملك رصافة الشام لتكون منزلاً ملوكياً لبني أمية ، وأنشأ المعتصم سامرّا لتكون منزلاً له ولعقبه من بني العباس ، وأنشأ ابن طولون مدينة القطائع بمصر لتكون له ولعقبه قاعدة ملوكية إلى جانب الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية ؛ وفي الأندلس أنشأ عبد الرحمن بن معاوية مؤسس ملك بني أمية بالأندلس ضاحية ملوكية في قرطبة سماها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام ؛ وسطعت كل من هذه القواعد

الملوكية الاسلامية حيناً من الدهر ، ولكنها اختفت جميعاً من صفحة الوجود ، إلا القاهرة فانها استحالت إلى عاصمة الاسلام فى مصر ، وما زالت تقطع الأحقاب قوية راسخة ، تحمل حتى اليوم عمرها الألفى أعظم ما تكون الحواضر العظيمة والمدن الغراء ضخامة وفخامة وبهاء

كان عصر عبد الرحمن الناصر أعظم عصور الاسلام فى الأندلس ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد ، منافستها فى المشرق ، بهاء وفخامة ؛ ولكن قرطبة كانت بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والرياض الشاسعة ؛ بل كانت تضيق بهذه الأبنية الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلاً ومتنزهاً ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة ؛ فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية رائعة ، فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولانشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين فأوحى اليه بانشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته « الزهراء » ؛ وأنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيرا فأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى ؛ فأوحت اليه « الزهراء » بأن ينشىء بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها (١) . بيد أنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هـذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيـان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها فى سفح جبل يسمى جبل العروس (١) ؛ وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر الى ولده وولى عهده الحكم بالاشراف على بناء العاصمة الجديدة (٢) ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية (٣) ، وجلب اليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من المريه وريه ، ومن قرطاجنة افريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية (٤) ؛ وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويمد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعنى مدى خمسة وعشرين وعاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد الحكم (٥) وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ؛ وانشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمى بقصر الخلافة صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة (٦) ؛

(١) نفح الطيب للمقرى (مصر) ج ١ ص ٢٤٥

(١) نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومه) ص ١٩٣ — والمسالك والممالك لابن حوقل (ص ٢٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش
(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٧ — نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥
(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧

وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس ، بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير الذى أهدى اليه من قيصر قسطنطينية ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها الى الحوض (١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الاسلام مثله فى الروعة والاناقة والبهاء (٢)

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيما تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً ، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال (٣) ، وانشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى (٤) ؛ والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الادارة القوية المدنية والعسكرية

وفى إقامة هذه المنشآت الباذخة وبذل هذه النفقات الطائلة ما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس من القوة والضخامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت لعهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف (أعنى خمسة آلاف مليون) وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ؛ هذا عدا أخماس الغنائم العظيمة التى لا تحصى ؛ وقيل لنا إن الناصر خلف وقت وفاته فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار ؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث ، ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ،

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦
(٢) « « ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥
(٣) « « ج ١ ص ٢٦٤
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

وثلث يدخر للطوارئ (١) ، ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب (٢) ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة والزهراء فى ذلك العصر إن الناصر وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرة هم أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر (٣) ؛ وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وطائل غناها وبذخها فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته الكثيرة أن يضطلع باعباء هذه المنشآت العظيمة الباهرة ؟

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ؛ واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ؛ واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة (٤) . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة ، مذ تم بناء القصر والمسجد ؛ وقد كان ذلك فيما يظهر فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ففى شعبان من هذا العام تم بناء المسجد ، وأقيمت به أول جمعة رسمية ؛ وكان الناصر قبل ذلك بنحو عامين قد اتخذ سمة الخلافة وتسمى بألقابها (سنة ٣٢٧ هـ) ، فكانت الزهراء بذلك أول منزل للخلافة الاسلامية بالأندلس

للبحث بقية **محمد عبد الله عنان**

(النقل ممنوع)

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧
(٢) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne II p. 173
(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٧
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤

بين المعجزة والعـــلم

للأستاذ زكي نجيب محمود

أخى س :

. . . . لم أكن أتوقع من صروف الدهر مهما أسرفت فى عبثها ، أن تُخرج منك ، وأنت القديس المتبتل فى يفوعتك ، زنديقاً يكفر بما كان يؤمن به قلبك ويدين ! ! حتى جاءتنى هذه الرســالة منك ، ففضضتها وأجلت فيها البصر سريعاً ، فاذا بصفاتك تختفى وتتنكر ، وإذا بك تبدو لعين صديقك انساناً غريباً يشك بعد يقين ، وينكر بعد إيمان ! لقد مضيت فى كتابك لى ترفض كل ما يزعمه الناس من المعجزات وخوارق الطبيعة ، وتلوح فى كل سطر بالعلم وقوانين العلم ، وتمتز فى كل سطر بالفلسفة ونتائج الفلسفة ؛ ثم ختمت الرسالة بهذه العبارة أخذتها من كتاب سبينوزا « فى الدين والدولة » : « يظن الدهماء أن قوة الله وسلطانه لا يتجليان بوضوح إلا بالحوادث الخارقة التى تناقض الفكرة التى كونوها عن الطبيعة . . . إنهم يظنون أن الله يكون مُعَطَّلاً ما دامت الطبيعة تعمل فى نظامها المعهود ، وعكس ذلك صحيح ، أى أن قوة الطبيعة والأسباب الطبيعية يبطل عملها ما دام الله فعّالاً ؛ وهم بذلك يتخيلون قوتين منفصلة إحداهما عن الأخرى : قوة الله وقوة الطبيعة ؛ والواقع أن الله وقوانين الطبيعة شىء واحدٌ » . ولقد سألتنى بعد ذلك قائلاً : « ما حاجتك إلى التمسك بالمعجزات وخوارق الطبيعة ما دام العلم يفسر لنا كل شىء بقانون ؟ ! »

وإنى لأستطيع أن أقوض عليك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بما انتهى اليه هذا العلم نفسه ، من أن الطبيعة المادية لا تسير وفق قانون صارم كما يذهب بك الظن ، بل إنها قد تغير سلوكها بما لا يمكن التنبؤ به ، كالكائنات الحية سواء بسواء ؛ وإن هنالك بين أساطين العلم من يزعم أنه ليس فى الطبيعة كلها ذرة واحدة تخلو من الحياة أو ما يشبه الحياة ، وكل الفرق بين حياتها وحياة الانسان هو فى الدرجة لا فى النوع ، فكما أننى لا أستطيع أن أتنبأ بما أنت فاعله غداً ، كذلك لا يستطيع العلم أن يقطع جازماً بما ستؤول اليه هذه الذرة أو تلك ، لأنها يا سيدى تتمتع بشىء مما تتمتع به أنت من حركة وإرادة ، وليست مجرد آلة صماء فى يد القانون ! ! ولكن يجب أن أسارع إلى القول بأنه وإن تكن الذرة الفردية على شىء من الحياة التى قد تغير فى سلوكها ، فانها فى مجموعها أقرب ما تكون إلى النظام الدقيق فى سيرها ، كما أن الانسان الفرد حُرٌّ فى تصرفه إلى حد بعيد ، ولكنه فى المجموع يسير وفق أسس وقواعد لا تكاد تعرف الشذوذ

نعم أستطيع أن أقوض عليك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بهذه الحقيقة العلمية التى تعترف للطبيعة بإمكان التغير فى بعض جوانبها ، فذلك وحده كفيل بتعليل أى تبديل فى نظام الكون المعهود ، ولكنى سأفرض معك أن قوانين الطبيعة يستحيل عليها الخطأ ، وأن المادة لا تملك لنفسها تغييرا ولا تبديلاً عما رسمه لها قانونها الأعلى ، فمن ذا الذى زعم لك أن المعجزة كسر لقانون الطبيعة ، وإنه لذلك يجب اطراحها ونبذها ؟ نحن نسلم معك أن قانون الجاذبية صارم لا يقبل الشذوذ ، وأن التفاحة إذا انفصلت عن فرعها سقطت من فورها على الأرض بفعل قانون الجاذبية هذا ، ولكن هب يداً امتدت إلى التفاحة أثناء طريقها إلى الأرض فلقفتها فحالت بذلك بينها وبين الأرض ، أيكون ذلك كسراً للقانون ؟ كلا ! القانون لا يزال قوياً سليما ، غير أن إرادة بشرية حالت دون تطبيقه لا أكثر ولا أقل . . . أإذا تركت أقلامك وكتبك مبعثرة فى أرض غرفتك ثم عدت بعد حين فوجدتها صعدت إلى ظهر المكتب صفوفاً منظمة ، أفتقول إن قانون الجاذبية قد انقلب رأساً على عقب لأن الكتب والأقلام قد صعدت إلى أعلى بدل أن تستقر على الأرض منجذبة بها ؟ أم أنت جازم فى مثل هذه الحالة بأن شخصاً بشرياً قد تدخل فى الأمر بإرادته وحال بين قانون الجاذبية وبين تنفيذه حيناً ، فأمكن للكتب بذلك أن تفلت من يده ، ولكن القانون لا يزال قائماً لم يخدش ذلك من قوته وشموله ؟ ! لا أحسبك مرتاباً فى صحة هذا القول ، فأنت موافق ولا شك أن الارادة البشرية قد تستطيع أن تتوسط بين القانون وبين تطبيقه فتعطله دون أن تبطله ، نعم إنك موافق على ذلك ،

ولكني لو حورت العبارة قليلاً سائراً بها نحو الأقوم والأصح فستغضب للعلم وكرامة العلم ؛ لو زعمت لك أن لله إرادة حرة كهذه التى للانسان ، يستطيع بها أن يعطل قانون الطبيعة حيناً قد يقصر أو يطول ولكنه يظل قائماً معمولاً به لا يصيبه عطب ولا خسارة ، كان ذلك الزعم مني فى رأيك جهلاً وحماقة ، يارعاك الله ! أفتستطيع أن تحدثني عما يبرر عندك أن يكون للانسان ما ليس لله ؟ ! !

معذرة ، ياصديقى ، فسأقص عليك حديثاً عن كلبي ، وللحديث صلة بموضوعنا ، فقد وضعت كتاباً بالأمس على مقعد إلى جانبي ، فجاء الكلب يتحسس ويتجسس ويشم الكتاب ، وأظنه قد حسبه قطعة من الجماد لا خير فيها ، فترك الكلبُ الكتاب وانصرف ؛ وإذا فرضنا أن التفاهم مع الكلب ممكن ، ثم جئت تقسم له أن فى الكتاب ما ليس يدرك بالشم واللمس ، وأن فيه معنى إذا كان لا يدركه هو فليس عجزه دليلاً على عدم وجوده ، نفر وسخر وأكد لك أن حواسه مقياس للحقيقة لا يخطىء . . . وإنى لأحسب الكون ياصديقى كتاباً مفتوحاً فيه من المعانى السامية ما يمكن فهمه وإدراكه لذوى البصيرة السليمة . ولكنى أؤكد لك أن هنالك طائفة من الناس ستمد أيديها وأنوفها إلى جوانب الطبيعة تتحسسها ، ثم تجزم فى يقين لا يعرف الشك ولا التردد بأن هذه الطبيعة جماد فى جماد يسيره هذا وهذا من القوانين فى طريق مرسومة معلومة لن تشذ فيها خارقة ولا معجزة . . . وأعجب العجب أن تكون هذه الطريقة الكلبية علماً ، وأن يكون كل ماعداها تخريفاً وجهلاً

نشدتك الله إلا حدثتنى كيف جاز لك أن تقطع أن ليس فى الكون من الحقائق ما تعجز عقولنا وحواسنا عن إدراكه ؟ ولم لا يكون فى هذا الكون الفسيح من هو أكبر منا عقلاً وأحد ذكاء فيستطيع أن يقرأ فى كتاب الكون ما لا نستطيعه ؟ ترى لو أتانا الله حاسة سادسة وسابعة وثامنة ، فماذا عسانا نعرف بتلك الحواس الزائدة ، أم تظل أبواباً مغلقة لأن العلم قد نفد ؟ !

تعال معى إلى الكون نحتكم إلى ظواهره لنرى هل استطاع العلم أن يعللها جميعاً ، أم أن هناك ألوفاً وألوفاً يقف أمامها العلم مكتوف الأيدى ولا يمكن فهمها إلا أن تكون « خوارق » فوق العلم وقوانينه . أم تُراك فاعلا كما يفعل ذوو النزعة المادية الضيقة ، فتطأ بقدمك كل الظواهر التى تستعصى على العلم وتنكر وجودها حتى لا ينثلم العلم ولا ينخدش ، أو تطلب الينا أن نصبر وأن ننتظر حتى تتم للعلم قوته وفتوته فيشمل الكون كله بالتفسير والتعليل ؟ وفى الحق أن هذا السلاح الذى يشهره الماديون — سلاح التسويف والوعد بأن العلم سيتمكن فى المستقبل مما لم يتمكن منه اليوم — يمكن استخدامه فى كل حين ، فليس بيننا وبينهم موعد يبطل بعده التسويف ، ولكنها مماطلة متجددة لا تنقطع ولا تفرغ ؛ فاذا فرضنا أن رجلاً استطاع أن يحز رأسه ويحمله فوق يديه سائراً به فى الطريق ، ثم سألت الماديين رأيهم فى هذا أجابوك : اصبر فان الزمن كفيل للعلم أن يبرهن على هذه الظواهر وأشباهها ، فليس ذلك على العلم بعزيز . . . ولكن هل يتفق وروح العلم أن نلجأ إلى دليل غير موجود ؟ أم أنه أحجى وأقرب إلى الصواب أن نعلل الظواهر بالأدلة التى بين أيدينا ، حتى ولو تعارض ذلك مع آرائنا ؟ فماذا يمنع أن نفرض أن هنالك قوى غير مادية تفعل فعلها وتؤثر فى مجرى الطبيعة فتنتج كل هذه الخوارق والمعجزات ؟

ولكن الماديين يركبون رؤوسهم ويحاولون أن يعللوا بقوانين العلم كل شىء ، فان عجزت أمهلونا إلى المستقبل القريب أو البعيد . والعجب أن لهؤلاء الماديين « شطحات » فى التفكير تدعو إلى التأمل ، فأنت إذا سألتهم مثلاً كيف نشأت هذه الخلائق ؟ أجابوك : تسلسلت نوعاً عن نوع وجنساً عن جنس ، وأصلها كلها خلية واحدة ... حسن ! وكيف نشأت هذه الخلية الواحدة ؟ إنها تولدت بطريقة تلقائية آلية من الجماد ! فانظر اليهم كيف تجيز لهم عقولهم صدق هذا النبأ مع أنه على فرض أنه صحيح فقد حدث فى ماض بعيد سحيق ، ولم يشهده شاهد ولا سجله مسجل ، ولكنهم مع ذلك يقبلونه راضين مختارين ؛ ثم إذا عرضنا عليهم خارقة من خوارق الطبيعة مما يقع على مرأى منا ومسمع ، أنكروها فى حمق مع أنها حاضرة بين أيديهم وليست بالماضى البعيد ، وهى مشاهدة ومسجلة فكانت أجدر بالتسليم والقبول من تلك « الخارقة » البعيدة — ونسميها خارقة لأنه ليس من قوانين الطبيعة فيما نظن انبعاث الحياة من الجماد ! ولكن القوم يختارون من الآراء والعقائد ما يتفق مع مذهبهم ، كما يتخير النساء أزياءهن لكى تلائم ألوانهن وأجسامهن

هب يا صديقي جماعة قد ارتطمت سفينتهم على جزيرة مهجورة لا أثر للحياة فيها ، ولكنهم ألفوا على أرضها آثار أقدام ليست من آثارهم ، فبماذا يعللون هـذه الظاهرة إلا أن أناساً غيرهم كانوا بالجزيرة منذ حين ؟ أظن هذا منطقاً لا صعوبة فيـه ولا التواء : لكل أثر مؤثر ، فان رأينا أثراً ولم نجد بيننا مؤثره أيقنا أن هذا المؤثر لا بد أن يكون موجوداً في غير مكاننا . وها نحن أولاء ننظر فنرى أنفسنا فوق هذه الجزيرة المهجورة التي تسبح بنا في الفضاء ، ثم ننظر فاذا بآثار لا يحصيها العد تفرض علينا فرضاً أن أحداً غيرنا قد اتصل بهذه الجزيرة وهو يتصل بها في كل حين ليحدث هذه الآثار

ولست أدري ماذا يضيرك أن تعلل بالعلم ما يمكن العلم أن يعلله ، وأن تُرجع إلى القوة التي فوق الطبيعة كلَّ ما تصادف من خوارق ومعجزات ؟ يقول الماديون إن إدخال « الله » في مجرى الطبيعة عجز وقصور عن التعليل الصحيح ، ويزعمون أن الانسان الأول كان يفسر كل شيء بقوة الآلهة لقلة محصوله من العلم ، فكان إذا اكتسب شيئاً من العلم يعلل به ظاهرة مّا ، أسقط هـذه الظاهرة من دائرة نفوذ الله وأدخلها تحت سيطرة العلم ؛ وهكذا أخذ العلم ينمو ويتسع كما أخذت المقيدة في تأثير الله على سير الطبيعة تضؤل وتضيق ، وهم يرجون أن يطرد نمو العلم حتى يشمل الكون جميعاً ويفسر « الظواهر » كلها بغير استثناء ؛ وهم بناء على ذلك يرفضون رفضاً قاطعاً أن يعللوا شيئاً إلا على أساس واحد : هو قانون الطبيعة ويلفظون من حظيرتهم كل من يحاول أن ينسب شيئاً إلى قوة أخرى غير قوة الطبيعة وقانونها ! وقديماً كان العالم أو إن شئت فقل الكاهن يفسر كل شيء بقوة الآلهة وحدها ، وينبذ كل من يحاول أن يفسر شيئاً على غير هذا الأساس ! فهل ترى فرقاً بين الكاهن القديم والعالم الحديث ؟ كلا ، فكلاهما متعصب محدود الفكر ، ضيق النظر ، ولعمري إن العالم الماديَّ الحديث لم يزد على أن ارتدى رداء سلفه الكاهن مقلوباً ظهراً لبطن !

لعله أقرب لروح العلم الصحيح أن نتناول الأبحاث أحراراً من كل قيد ، فلا نفرض لأنفسنا أساساً معيناً للبحث لا نعدوه ، أعني أنه لا ينبغي أن نحتم على أنفسنا أن تفسر كل شيء بكذا أو بكذا ؛ وإلا كنا كعلماء الفلك الأقدمين الذين كانوا ينظرون في السماء ويبحثون في النجوم على شرط أن يكون بحثهم مقصوراً على ما هو معروف من النجوم ، فان ظهر كوكب أو نجم جديد أنكروه ورفضوه ! !

أردت يا أخي أن تكون حراً في البحث فكبلت نفسك بالأغلال والقيود ! فارفع عن بصرك هذه الغشاوة عسى أن يهديك الله سواء السبيل

زكي نجيب محمود

٢ ـ منازل الفضـــــل

دار على مبارك باشا

للأستاذ محمد محمود جلال

من الأسماء ما يخف على سمعك لمجرد تركيبه ووقع نغمه في الأذن ، ومنها ما يعجبك لمعنىً يشير اليه ؛ وقد يعجبك الاسم وقد خلا من هذين اعجاباً بشخصية قدّرت في التاريخ دورها ؛ وقد يكون من بين الأسماء ما ينفر منه السمع ، وهو مع ذلك حبيب إلى نفسك لذكرى تتصل به أو جميل أردفته بالعرفان

ويقص المتشيعون للعلاقة بين الاسم والمسمى من علماء اللغة أن أحدهم سأل اعرابياً عن معنى « أذغاغ » فقال الاعرابي وهو لا يعرف من الفارسية شيئاً : « أرى فيه يبساً وصلابة ، ولعله الحجر »

وليس للطفولة أن تسمو إلى شيء من ذلك البحث أو ذاك القياس ، وإنما يسبق فيها الاحساس المعرفة ، فما نظرت إلى شيء من ذلك يوم كان « شارع على مبارك باشا بالحلمية » أحب الشوارع الى سنة ١٩٠٨ ، فكنت أخصه بروحاتي وغدواتي ، وأختص « اليافطة » أول سيري به بتجربة قدرتي على قراءة اليفط والخط المشبك

سكنا الحلمية بعد أن هجرنا دارنا الأولى بدرب الجماميز حيث مأمورية الأوقاف الآن ، على أثر خلاف بيننا وبين ديوان الأوقاف على حيازة القطعة المجاورة لتوسيع الدار بطريق البدل ، ولا أجد اليوم تعليلا معقولاً لتفضيلي إلا بالصلة التي توجدها النشأة ، وقد نشأت في الريف ، ومن أسرة فلاحة ، واسم علي ومبارك

كثيرا الشيوع فى الفلاحين ، فلم يكن عجيباً أن يكون هذا الاسم أقرب إلى النفس وأسهل فى الحفظ من أسماء ندر أن نسمع بها « كسنجر الخازن » و « الأمير يوسف » وغيرها

أجل لم يكن بذلك الشارع بائع (سودانى) ولا شوكولاته ، ولم تكن حوانيت الساندويتش انتشرت بعد ، حتى أرد التفضيل إلى تلك المغريات فى سن الطالب

وفى عام ١٩١١ أهدتنى الجمعية الخيرية الاسلامية مجموعة ثمينة من الكتب لنجاحى من الفرقة الثالثة فى الشهادة الابتدائية ، كان من توفيق الله أن ضمت بين دفتيها « تاريخ على مبارك باشا » ولن أنسى ما حييت غبطتى بهذا الكتاب ، وذكرت على التو شارع على مبارك باشا ، وقلت : إذن فهذا رجل له فى تاريخ البلاد شأن !

عكفت على القراءة مبتدئاً به ، وخفق قلبى حين وقفت فى أوله على نشأة « على مبارك » فصدق ظنى ، فهو فلاح وابن فلاح مثلى ، فلم أترك الكتاب حتى جئت على آخره ، وأعدت قراءته مرات حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب إذ ملئت اعجاباً بالرجل

سميت المرحوم محمد شريف باشا حين كتبت عنه « رجل البرنامج » ، وليس اليوم أحق بأن يسمى « رجل الواجب » من المرحوم على مبارك باشا

رأى صديقى المرحوم محمد بك رمضان القاضى السابق بالمحاكم الأهلية حين زار (ڤينا) عقب الحرب أحد ضحاياها «چول» يزحف وقد بقيت له ساق واحدة وذراع واحدة ، وبيده الوحيدة مكنسة ينظف بها الرصيف ، فسأله عن قصته

قال چان : إنه كان يعمل فى التحاليل الكيميائية ، ويؤدى بذلك واجبه نحو بلاده وأسرته ، وانخرط فى سلك الجندية يؤدى واجبه نحو بلاده وأسرته ، فلما فقد ساقه وجد مجال الواجب فى عنابر الجيش يلف ويرتب بيديه ، ولما فقد إحدى اليدين وكانت الحرب فى نهايتها اشتغل كناساً ، فهو بعد لا يستريح ضميره أن يكون من العاطلين ، ومن بين اخوانه من هو أحق منه بالاعانة والاعاشة ، وليس أحب إلى نفسه من أن يقوم بالواجب ويعيش من أداء الواجب ، فليس فرق عنده بين المعمل والصقوف ، ولا بين المنابر وكنس الرصيف ! ! !

حيّاه صديقى عليه رحمة الله ، وكتب عنه مقالاً كاملاً يذيع نبل نفسه ويضربه مثلاً لقومه

وكذلك كان على مبارك باشا ، فهو من نوابغ البعوث العلمية فى أول البعوث ، وهو المبرز بين أفراد بعثته ، وبلاده فى حاجة إلى أمثاله ، وفى حاجة أشد الحاجة اليه ؛ ولكن لا زهو ولا صلف ولا استكانة ! فالحاجة اليه يراها نعمة الله تستوجب الشكر ، والعلم الذى يقدره الناس فيه يراه الثروة التى زكاتها البذل منها فى خير البلاد

ومن لم يجمّل فضله بتواضع يَبِنْ فضله عنه ويعطل من الفخر

كان على مبارك باشا (ناظراً) وزيراً للأشغال يسيطر على أكبر الادارات صلة بحياة البلاد ومرافقها ، يضع الخرط وينظم حفر الترع والجسور التى طالما أحيت مواتاً وردت أخلاف الرزق على الملايين وتركت اليباب مزارع وحقولاً ، فى أول عهد البلاد بزراعة منظمة ورى منظم

وبينا هو غارق فيما تمده اليوم أبهة المنصب ، ينقل لسبب أو لغير سبب ، لغضب أو لتقدير موهبة منتدباً لاصلاح طابية وهو من خريجى المعاهد الحربية ، فينتقل قرير العين وكأن العالم صور فانحصر فى تلك الطابيــة لا يرى أمامه إلا أن يعيدّها كما يجب أن تمد تقديراً لأمانة العلم وقياماً بالواجب

ولى على مبارك باشا فى وقت ما وزارتين ، وجىء به وقتاً آخر يشرف على مد خط حديدى ليس أكثر من كبير مهندسين ، جاءت خطته وأوضاعه وتنفيذ مشروعه آيات فى حسن الوضع والتنفيذ ؛ ولم يكن على مبارك باشا ذو الوزارتين غير على مبارك صاحب عيشة الخيام فى برارى البلاد يوطد أركان الدفاع عنها ، ولا غير ذلك الرجل الهادئ رجل الواجب ، يضع من قطع الحديد وصلاً لبلاد الريف وقراه وتقريباً للشقة وتيسيراً لأمور الخلق ، فهو إنما يعيش لبلاده ، وإنما يخدم بلاده ، وإنما يخدمها حيث يوضع ، ويستثمر كفاءته فى أى مجال . طريقته واحدة ونظرته واحدة ، وهدفه واحد : الواجب

وإنك لترى اليوم من شبابنا من ينقل من وظيفة إلى أخرى دون أن تمس راتبه ودون أن تمس درجته ، فهو لا يكتفى بالشكوى والضجيج والالحاح حتى يسمم عمله الجديد بآثار غضبه ويأسه

ولا يعيش إلا بخيال واحد وأمل واحد : أن يتغير العهد ويعود له ما كان فيه ، بينما يقاسي المحكومون ممن تتصل أحوالهم بعمله ألواناً من البطء فى شؤونهم وكثيراً من عنت لا ذنب لهم فيه

هذه الظاهرة وحدها من سيرة « على مبارك باشا » درس قيم فى الأخلاق وتراث زاخر ، وموعظة لهذا الجيل بالغة

***

أما عمله فى وزارة المعارف فنى كل ركن من أركان التهذيب والتثقيف له أثر عميق ، كان لا ينى عن زيارة المدارس زيارة لا يسبقها إعلان ولا شىء من جلبة الرسميات ، ولو خلت من هذا وحده لكانت بذلك كافية فى معنى الرقابة وما يتصل بالحرص على الواجب من الوقوف على درجة التقدم وعيوب التنظيم

لكنها لم تقف عند ذلك الحد ، فكان عليه رحمة الله يسأل أكثر من طالب فى كل فرقة وفى أى مادة يتفق تدريسها مع ساعة الزيارة ، وطالما كان له جولات فى مختلف العلوم مع من يزورونه من الطلبة فى الديوان سواء لرفع شكاة أو تبيان مصلحة

هكذا كان على مبارك باشا . فانظر إذن وتخيل ما تكون عليه دار أسعدها الله بسكنى رجل الواجب

كان عهده نادر المقاهى والسوامر والملاهى ؛ وكانت الدور العامرة سواء فى العواصم أو فى الريف تقوم بدورها فى صيانة الأخلاق وتكوين الجيل ، والعلماء وقت ذاك قليل ، وعلى مبارك بين القليل درة لامعة

دار كانت بالوافدين والساعين إلى العلم أكثر ازدحاماً مما ترى اليوم فى جامعة أو فى سينما ، لكل فريق دور ، والأدوار متعددة تنتهى بآخر السهرة من الليل لاختلاف أوقات الفضاء لصاحب الدار أو للوافدين

دار طالما عمرت بصالح الحديث وبعدت بنازليها عن اللغو ، فصفوة العلماء يبحثون ويباحثون ، وللأدباء فيها نصيب كبير ، وللطلاب النصيب الأوفر

تزين الدار مكتبة جامعة ، نصيب الرجل منها كنصيب أى واحد من قاصديه ، وعليه هو القوامة على تنسيقها وحفظها ، بل عليه أن يختار لكل ما يلائمه ، يبذل من الكتب والمراجع كما يفيض من محفوظه وتجاريبه ؛ وهل يستطيع على مبارك إلا أن يكون واحداً فى كل تصرفاته وفى روحاته وغدواته يقوده الواجب ، وسيرته التماس النفع للبلاد ؟

ولقد أعلم أن المرحوم « مصطفى كامل باشا » الذى ما زالت البلاد تعتز فى ظل ما خلف إلى اليوم ما أحسن المحسن وما أساء المسىء ، كان فى شطر كبير من تكوينه العلمى أكبر حسنات تلك الدار ، كما كان صاحب الدار أكثر الناس إعزازاً للنجباء من أبناء البلاد ، فمن نزح إلى أوربا يكمل تعلمه ، لا ينى فى البحث عنه فى العطلة الصيفية وفى عودته إلى الوطن ، ولا تلبث الحلقات أن تعقد من أولئك الأنجاب فى تلك الدار التى ازدهرت وقتاً ما فازدهرت بها حديقة العرفان وكللت جبين البلاد

كانت مهمة الدار فى أفق العلم مهمة الجامعات ، فهى سيطرة رفيقة على تنظيم الثقافة وتوزيعها على قدر المختلفين اليها ، وكانت فيما بين الذين أكملوا دراستهم واسطة العقد ، ووسيلة التعارف وأداة الوصل ، كما كانت للنازحين فى طلب العلم مرداً إلى عوارف الوطن ، وجميل المدرسة الأولى ، وخير مقرب بين الثقافتين ، وخير قوام على تطبيق المعلومات وتهذيبها وصبغها بما يناسب صبغة البلاد

أين تلك الدار ؟ وأين كعبة العلم ؟ ذهبت بها تصاريف الزمان وعفاها ما يشبه الجحود منا حكومة وشعباً ، ومثلها مثل قصر أم المحسنين فى حى الدوباره ، قامت أحجاره يسخر منها « قصر العار » وخلا من كل شىء إلا من نسيج العنكبوت

بل إن للعلم عند الله كرامة ! فلئن ذهبت رسوم الدار بين الرياح من جنوب وشمال فقد أكرم الله نازلها وعامرها بهذا العفاء ، فلعلها لو عاشت لظهرت غريبة ولأزرى بها انصراف مؤلم عنها وشماتة من دور قامت على الاساءة للبلاد والسخرية مما ينفع الناس

يبحث إخواننا من أهل العراق عن « المثنى » ويقيمون باسمه نادياً ، فهلا نسمع من شباب الجامعة عزماً على البحث عن مكان الدار وتسمية ناديهم باسم « على مبارك »

إذا كان هذا عزيزاً على أنواء الزمن فهل نسمع فى القريب أنهم زينوا إحدى غرف النادى أو قاعات البحث بالجامعة باسم الراحل الكريم ؟ !

أيها الناس أكرموا السلف يكرمكم الخلف ، فكما يدين الفتى يدان ؟

الشيخ عطا

محمد محمود جلال
المحامى

جور القانون

للأستاذ جمال الزرقاني

أعجبت أشد الاعجاب بسلسلة مقالات « الجمال البائس » للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي وتتبعتها بمجلة (الرسالة) الغراء ؛ وأعجبت منها خاصة بتصويره للقانون فى مقاله الأخير ورميه بالفجور وقوله على لسان الأستاذ « ح » : « فالحقيقة التى لا مراء فيها أن فكرة الفُجور فكرة قانونية ، وما دام القانون هو الذى أباحها بشروط ، فهو هو الذى قررها فى المجتمع بهذه الشروط » . وهذه فكرة كانت ظاهرة خافية معاً ؛ فهى فى القانون ولم ينتبه لها أحد ولا من رجال القانون . وقد صار من حق (الرسالة) وقرائها علىَّ أن أكشف هذا المعنى كشفه القانونى ليعرف القراء كيف غُرس الفُجور غرساً فى قوانيننا المصرية

لا مشاحة فى أن قانون العقوبات قد اهتم لعقاب الجريمة بعد وقوعها أكثر من اهتمامه بالاحتياط لها والعمل على منعها قبل حدوثها ؛ فمهمته فى الواقع لم تخرج عن بيان الأفعال التى يعتبرها الشرع جرائم ومقدار الجزاء على كل منها ، فهو يتضمن القواعد الموضوعية Règles de fonds للقانون ؛ بينما اهتم قانون تحقيق الجنايات « بالنظم والاجراءات » التى يجب أن تراعى لتنفيذ قانون العقوبات ، أى لمعرفة الجانى إذا ما وقعت الجريمة ، فهو يتضمن القواعد الشكلية Règles de forme ، فكلا القانونين اهتما كما قال الأستاذ الرافعى « لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها » وتركا مسألة الجريمة وبلا احتياط لمنعها قبل حدوثها للقوانين البوليسية وللعقوبات الأدبية ، وبهذا أضافا للخطأ خطأ آخر إذ أغفلا مسألة واقعة وهى أن العقوبة الأدبية قد أضعفتها عوامل المدنية الحاضرة ولم يبق فى أكثر النفوس إلا سلطان القانون وحدوده . .

والسبب فى تقصير القوانين الجنائية هذا التقصير الفاضح وخاصة فى بلاد إسلامية تتخلق بأخلاق الفضيلة ، هو أجنبية هذه القوانين فانها فرنسية الأصل ، فرنسية الوضع ، فرنسية التطبيق ، فرنسية المرجع ، فمن ثمَّ لا يؤدى إلا ما تؤديه القوانين الفرنسية فى بلادها . أما حالات الشرق الخاصة وتقويم تقاليده وأخلاقه ، فهى عمياء عنه أو تخبط فى عمياء ؛ ومن البلاء أن نقل هذه القوانين كان من عمل متشرعين أجانب بعيدين عن المحيط القومى فنقلوا نقلاً ممسوخاً أضاع كل فائدة ترجى وخاصة فى صميم المسائل الأخلاقية الشرقية . بل إن القانون وقف من هذه الأخلاق موقف الجامد الغافل أو المشجع المستهتر بالأباحة

ولو أنا عرضنا قانون العقوبات ووضعنا بعض المواد الصماء تحت نظر الفاحص لوضحت فكرتنا ، فمن المعروف قانوناً أن حرية النيابة فى « تحريك » الدعوى العمومية وفى استعمالها ليست مطلقة كل الاطلاق ، فهناك أحوال تحد من تلك الحرية ، ومنها ما يستوجب الاذن من صاحب الشأن كالحال فى دعوى الزنا .

والزنا فى القانون يختلف عنه فى اللغة وفى الشريعة ، وبهذا اقتصر القانون على اعتباره كذلك إذا وقع من الزوج أو الزوجة وشريكيهما ، وأحاطه بشروط خاصة ضيقة اشترط فيها قيام الزوجية فعلاً أو حكماً . فالفعل الواقع من الزوج أو الزوجة أثناء الخطبة أو بعد الطلاق البائن لا يعتبر جريمة . وكأن القانون فى نقله ذلك عن المواد ٣٣٦ — ٣٣٩ من قانون العقوبات الفرنسى قد أغفل الأخلاق الشرقية وتناساها وترك حبل الشيطان على غاربه ، بل هو قد شجع على ارتكاب هذا العمل من غير الزوج أو الزوجة بالشروط الخاصة بجريمتهما ، بل أكثر من ذلك أتاح الفرصة للزوج أن يفعل فعلته النكراء فى غير منزل الزوجية بلا عقوبة . وبذلك ترك الأسرة تتدهور بتدهور عائلها ووقف موقفاً غريباً فى صدد المساعدة على التدهور الأخلاقى ، فجعل الحق فى رفع دعوى الزنا للزوج وللزوجة وحدها ، فاذا رضى أحدهما عن فعلة الآخر وقف القانون مكتوفاً لا يمكنه التحرك إزاء العمل على سقوط الأسر واختلاط الأنساب والقضاء على الأخلاق ، بل إنه يقف حائلاً دون الزوج نفسه فى « تحريك الدعوى العمومية » إذا ما وقعت منه يمين الطلاق وهو فى جنون غيظه من جريمة زوجته ، وبذلك تتقى الزوجة وشريكها صولة القانون ويكون الطلاق كأنه محا الجريمة قانوناً مع أنه لم يقع إلا بها

ولا دلالة على نقل القانون المصرى نقلاً جامداً عن القانون الفرنسى أكثر من وقوفه بالمادة ٢٠١ عقوبات فى جانب الزوج الذى يقتل زوجته فى حالة التلبس بالجريمة ، معتبراً ذلك ظرفاً قانونياً مخففاً يعاقب فيه بالحبس فقط ، ثم يأبى ذلك على الأب

والأخ اللذين يمتد إليهما عار الجريمة أكثر من الزوج ، فالزوج يتخلص منه بالطلاق ، أما هما فالعار قد لصق بهما . وهذه القاعدة الفرنسية كانت معقولة في فرنسا في وقت وضع قانون العقوبات الفرنسي إذ كان الطلاق وفقاً للمذهب الكاثوليكي غير جائز ، وإذ كانت الجريمة من ذلك لاصقة بالزوج أكثر من التصاقها بأسرة الزوجة

ومن التخريجات الغريبة والتطبيقات التي تنشأ عن القانون الجنائي المصري في هذا الصدد ، حالة ما إذا فاجأ الزوج زوجته وشريكها ، فحاول قتلهما فقتلته الزوجة أو شريكها ، فلا عقوبة على فعلهما لاعتبار ذلك دفاعاً شرعياً عن النفس ؛ ثم إنه بعد ذلك لا عقوبة على جريمة الزنا التي اقترفاها إذ قد مات الزوج صاحب الحق في الدعوى ضدهما . ولو حدث أن قتل الزوج زوجته سقط بذلك حقه في الدعوى ضد شريكها ، لأن حظ الشريك مرتبط بحظ الزوجة الزانية فيستفيد مما كان يفيدها . وقد ماتت فالشريك يعتبر بريئاً إذ لا عقوبة عليه إلا إذا حكم على الزوجة ، وهذا غير متيسر لموتها

وكذلك القانون لا يعاقب على جريمة الفسق ولا على تلك الجريمة النكراء الشنعاء : جريمة اللواط متى توفر الرضا إذا كان سن الفتى أو الفتاة أكثر من ست عشرة سنة . فكأن القانون يشجع ذلك بعدم وضع الحظر عليه ، بل أكثر من هذا فانه يقف موقفاً غريباً بالنسبة للقاصر إذا جاوز السادسة عشرة فانه يبيح له أن يجني ويبيح الجناية عليه . . . . بلا قيد ، بينما لا يبيح له الزواج أو التصرفات المدنية إلا برضا وليه أو وصيه حسب الظروف ، وهذه مسألة من الخطورة بمكان عظيم إذ تترك الشبيبة الناشئة تتلاعب بها الأيدي والأغراض ، وبجرها المفاسد إلى غير مستقر بدون رقيب عليها ، وهي عدة المستقبل وآمال الأمة . فإذا كانت هذه الشبيبة على ما يحوطها من المفاسد ويغريها لا يحميها القانون فيا سوءة المستقبل ، ويا ضياع الآمال . ومن الواجب المحتم أن يتنبه المشرع إلى هذا النقص التشريعي فيسارع إلى علاجه قبل استفحاله كيلا يتهم بالمساعدة على التدهور الخلقي وعلى إفساد الأمة في أساسها الحي الذي هو الفتى والفتاة

هذا بعض من كل من الأمثلة الدالة على تجرؤ القانون والمشجعة لضروب التنكر — قد يقال إن روح القوانين الحديثة أن تتجه نحو الحرص على عدم التعرض بالعقاب للجرائم الأخلاقية إلا في حدود معينة ، فلم يعاقب على الرذائل والآثام لذاتها ؛ بل لما يترتب عليها من الضرر للأفراد أو للمصلحة العامة . ولكن الرد على هذا سهل يسير وهو : أنه ما من جريمة أخلاقية إلا أصاب الغير ضررها بالذات أو بالواسطة حالاً أو مستقبلاً ، وذلك بانتشار الرذيلة الذي يتبعه تأثر الوسط وفقدانه حيويته ؛ والذي يتبعه حتماً كنتيجة مباشرة انهيار البيئة الاجتماعية وتفشي الأمراض الخبيثة بينها وازدياد الأدواء المختلفة الجسمانية والأخلاقية ، وبذا تتأثر المصلحة العامة ؛ فلا حجة في تلك الحجة

ومع ذلك فان كثيراً من القوانين الحديثة لا تزال تحرم الرذيلة لذاتها ، والقوانين الانكليزية والألمانية والنمسوية والمجرية تعاقب على اللواط ولو وقع بالرضا ، كما تعاقب أيضاً على اتخاذ القيادة حرفة ومرتزقاً ؛ والقانون السويسري يعاقب على البغاء

وهذه هي قوانين الدول المسيحية ؛ أما الدول الاسلامية فان قوانينها ولا كفران لله قوانين واسعة سمحة . فياليت الحكومات الاسلامية تعمل بهذه الطريقة المكسية فتضع للشيطان قانوناً على الضد من طباعه ، وبذلك يجيء قانون الشيطان مصلحاً لقانون الانسان . . . . .

جمال الزرقاني
ليسانسيه في القانون

من أيام سورية التاريخية

ذكرى ٢٤ يوليو!

للأستاذين علي الطنطاوي وسليم الزركلي

قال الملك فيصل رحمه الله :

« . . . وقد كان بين هؤلاء الذين سقطوا صرعى في ميسلون بعض رفاق في معارك فلسطين ؛ وإني لأحني رأسي احتراماً لجميع هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل اعتداء لم يعرف له التاريخ مثيلاً . . . »

[جريدة الأيام الدمشقية العدد ٨٦٣ من هذا العام]

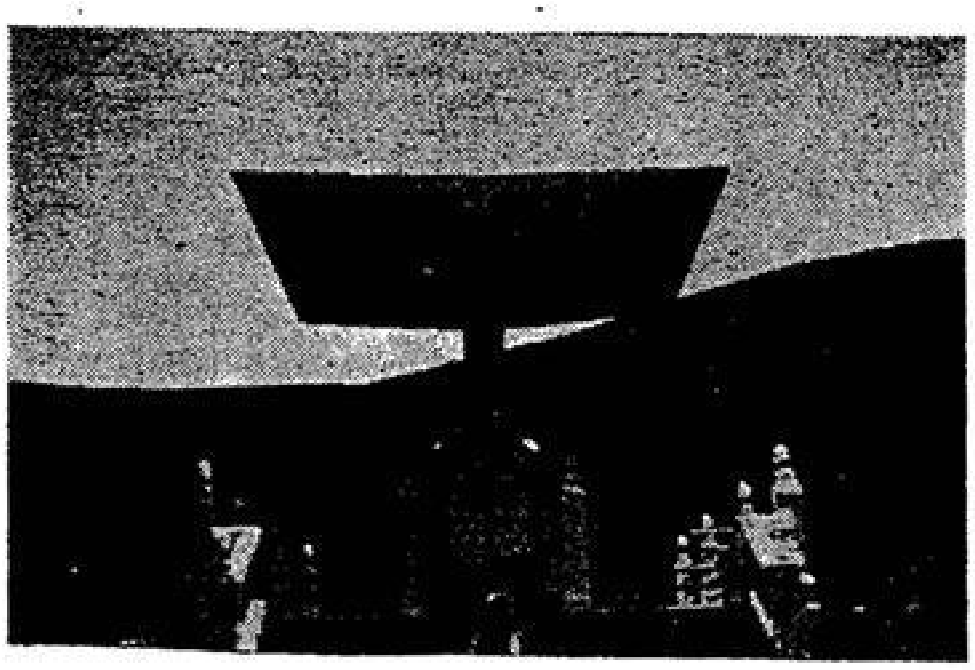
اخرجْ من دمشق ، وخلِّف وراءك الجسر وفيكتوريا ، وهذه البِنْيَة ذات الطبقتين ، التي كانت منذ خمسة عشر عاماً « النادي العربي » مثوى الوطنية ، ومثابة الاخلاص ؛ ودَعْ عن شمالك المرجة الخضراء ، التي وقفها نور الدين على سوائم المسلمين ، فرعاها نفر من الأقوياء الحاكمين ، وعاثوا فيها آمنين مطمئنين ؛ وجُزْ بالمِزّة وقلاعها ، لا تلتفت إليها ، ولا تأبَهْ لها ، واستقبل الربوة لا تحفل بقرارها ومَعينها ، ولا تعجبْ لأنهارها السبعة ، وقد امتدت بين عَدْوَتي الوادي بعضها فوق بعض ، كعقود اللؤلؤ في جيد الحسناء ، وتناسَ ما قال فيها ياقوت وقد طوّف أنحاء الدنيا ، وجاب أرجاء الأرض ، ثم رجع فلم يجد في الدنيا أنزه منها ؛ وعدِّ عن النَّيْرَب لا تذكر عهده ، ولا تبكِ أيامه ، فقد ذهب النَّيْرَب ، وغبرت أيامه ، وفارقه وأنشد قول ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها	فلي بجنوب الغوطتين شجون
وماذقت طعم الماء إلا استخفني	إلى بَرَدى والنيربين حنين
وقد كان شكي في الفراق يروعني	فكيف أكون اليوم وهو يقين
فو الله ما فارقتكم قالياً لكم	ولكن مايقضى فسوف يكون

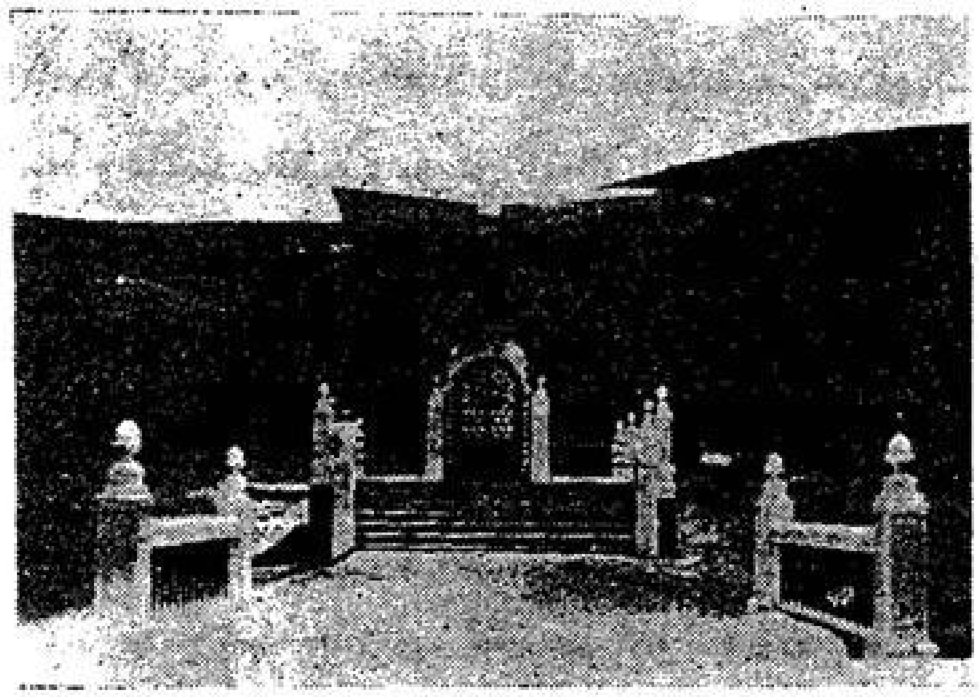
واسلك على وادي الشاذروان ، ولا يقفك عن غايتك أنه وادٍ من أودية الجنة ، هبط إلى الأرض لتذكر فيه النفس أيام الجنة الأولى ، فتطير إلى سمائها بأجنحة من نشوة الذكرى ، ولا يثنك عن وجهتك هذان الجبلان المتعانقان ، كأنهما عاشقان قد لبسا من النجوم المزهرة ، والأشجار المثمرة ، حلة أبهى من السندس ، ولا « يزيد » الذي يجري في صلب الجبل يزخر بالمياه ، فيطفح بها ، فتهبط الصخر من علو مائة ذراع متكسرة مزبدة ، كأنما هي ذوب اللجين ، حتى تعود إلى أبيها بردى ، وهو يجري في بطن الوادي جياشاً ثائراً ؛ واستقبل دُمَّر لا تقف بجنانها ورياضها ، ولا تفتنك قصورها ودورها ، ولا يشدك هذا القصر العجيب ، ذو المعارج الملتوية ، والألوان والنقوش ، والبرك والنوافير : قصر الأمير سعيد ، ولا قصر شمعايا تجري من تحته الأنهار !

ودع عن يمينك معمل الأسمنت الفخم ، الذي قام دليلاً على أن الشرق يستطيع أن يعمل ، ويقدر أن يبني . ومركباته التي أبت أن تمشي على الأرض ، فسارت متعلقة بأسلاك في الهواء .. وائت الهامة فدعها عن يمينك لا تنزل إلى السهل ، ولا تفتنك أنهاره وبهجته ، ولا تجذبك فسحته وخضرته ، وامش واضعاً « قادسية » عن شمالك ، ثم دُرْ دورة فاخرج من الوادي ، وامش صُعُداً حتى تدع الوادي من ورائك ، وتستقبل الصحراء الخالية القاحلة ، فاذا أصحرت فدع الديماس وحدائقه وامش قدماً حتى ترى هذه الهضاب المتسلسلة ، والآكام المتتالية ، فاعلُها .. حتى إذا بلغت ذراها ، ولمحت في عرض البادية ، في حضن الجبل ، بناء غريباً كأن سقفه جناحا طيارة ؛ ورأيت من أمامه سلسل ماء ، فاهبط اليه ، ثم قف خاشعاً منحنياً ، فأنت في ميسلون ، وأنت حيال قبر يوسف العظمة . . .

علي الطنطاوي



قبر شهيد ميسلون : يوسف بك العظمة
وزير الحربية في الحكومة العربية



قبر شهيد ميسلون : يوسف بك العظمة

قِفْ عند هذا الضريح   واهتف بسكانهْ
هل حلّ فيكم جريح   من أجل أوطانه
أهوى بكم يستريحْ   من برح أحزانه
بنى عليه الزمان   والغاشم الغادرْ
فراح يبغى الأمان   فى الفلك الدائرْ

أصمته هوج الخطوب   ففجرت دمعهْ
ومرهقات الكروب   فأوقرت سمعهْ
ولم تدعه الحروب   فكسرت ضلعه
بكى له النيران   والكوكب الساهر
فأين هذا الهوان   من مجده الغابر

الملك رهن الضياعْ   إن غيل فى مهدهْ
والسيف ما إن يطاع   مادام فى غمده
واحسرتا للشجاع   يبكى على مجدهْ
النذل والخوّان   والخاتل الماكر
يفوز بالجنان (١)   ويطرد الثائر

تبكى عيون السماءْ   على أمانينا
وفى مجارى الدماء   خاضت مواضينا
ما زال رهن الفناء   شتى مرامينا

(١) كذا فى الأصل ، والشطر مكسور (الرسالة)

هل يرجع الفاتحان :   الأسد الزائر
للعرش والطيلسان   والفاتح الظافر

جاست ديارى العداه   والدهر يبغينا
وعاث فينا الطغاه   ذلاً وتهوينا
لم تصف بعد الحياه   حتى تماديننا
آن أوان الطعان   فلينهض العاثرْ
لا يبلغ المجدَ وان   عن نيله قاصر

فاستصرخى يا قبور   عزائم الأبرار
ولتحطمنَّ الدهور   صواعق الأحرار
لا عاش من لا يثور   ويستسيغ العارْ
إنا فدى الأوطان   من غاصب جائرْ
لا عيش للأنسان   فى موطن صاغر

سليم الزركلى

٢ – معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراق

وفيما يلى وصف الأرض العام فى بلاد الحبشة : فى الساحل أرض سهلة رملية ، والرطوبة فيها تبلغ درجة عالية فى موسم الأمطار ، وحرها لا يطاق ألبتة ؛ وكلما تقدمنا من الساحل إلى الداخل ارتفعت الأرض واختلفت تربتها وتنوع شكلها ، فتكون ترابية وحصوية فصخرية فكلسية وهلم جرا ، وتأخذ فى التموج ، وهذا التموج يجعل الأرض فى بعض المحلات جبلية ذات غابات وأدغال ، وكلما زاد الارتفاع كثرت الوديان الضيقة المكسوة بالغابات والأحراج الكثيفة . والانحدار فى حافات الجبال شديد يحول دون تسلقها ؛ والطرق فيها مسالك ضيقة تسلكها الدواب بصعوبة . وإذا ما دخلنا الهضاب اشتدت الوعورة ، وازدادت المناعة . فالجبال تعلو فى انحدار شديد ، ويسيطر بعضها على البعض الآخر ، وتكثر فيها المكامن والمضايق والفجوات والوهاد

وقد شق الطليان طريقاً فى مستعمرتهم اريترة يربط الميناء « مصوع » بالعاصمة « أسمرة » ؛ وقد أنفقوا على شقه مبالغ طائلة من جراء انحدار الأرض وكثرة الوديان فيها ؛ وكذلك السكة الحديدية التى تربط «مصوع» «بأسمرة» فانها تعتبر من أرقى ما بلغه الفن الهندسى فى مد السكك الحديدية ، لأن السكة تتسلق الجبال ملتفة حولها عابرة على عدة جسور وملتوية الالتواء كله

وتستطيع القوات القادمة من الساحل بفضل وسائط التجهيز والتموين السير فى الأرض السهلة والأرض المتموجة ، وإذا ما وصلت الى السفوح الغربية يتوقف السير لمناعة الأرض وصعوبة سير العجلات والدواب فيها . ومع ذلك نجد أن فقدان المياه في الأرض السهلة والمتموجة مما يحول دون تسيير قوات كبيرة فيها

الأمطار والبحيرات

والحقيقة أن بلاد الحبشة مدينة لغزارة الأمطار التى تنزل فيها ، فهذه الأمطار تسقى بلاد الحبشة فتدر بركاتها على البلاد المجاورة لها ، وتنزل الأمطار فى بلاد الحبشة مرتين فى السنة ، صيفاً وشتاء ؛ والصيف موسم الأمطار الطويل ، فتبدأ الأمطار فى هذا الموسم فى أوائل ايار إلى نهاية إيلول ، وتقع غالباً بعد الظهر ، وتنزل بغزارة ، وتقلب الأرض السهلة والمتموجة إلى بحيرات وسيول فى مدة قصيرة ، وتجرى هذه المياه بسرعة فى الوديان الجافة إلى البحر ، وبعض الماء تبتلعه الأرض

وأما موسم الأمطار فى الشتاء فهو شهرا كانون الثانى وشباط ، والمطر فيه قليل . وأجل الأنهار شأناً فى بلاد الحبشة هى تلك التى تنبع من السفوح الغربية فى المنطقة الجبلية الداخلية وتصب فى نهر النيل

فنهر « صوباط » مثلا يتكون من فرعين ، ويجرى فى الجهة الجنوبية الغربية ؛ ونهر « اباى » ينبع من بحيرة « تانا » وهو يؤلف القسم الأعلى من نهر النيل الأزرق

وفى الشمال نهر « عطبرة » وهو يتألف من نابعين : نابع (مارب) فى الشمال ، ونابع (نكازة) فى الجنوب ، وبعد أن يسقى مقاطعة « تيجرى » يجرى شمالا ويصب فى نهر النيل فى عطبرة شمالى الخرطوم

ولنهرى اباى وعطبرة تأثير شديد فى اقتصاديات السودان ؛ فالأمطار الصيفية تملأ أحواض هذين النهرين ، فيفيضان بها ويسقيان مزارع السودان الصيفية ويتركان الرسوب الغرينية فى المزارع

وبحيرة « تانا » التى تمثل دورا خطيرا فى تاريخ الحبشة من حيث تأثيرها فى مياه النيل تعلو عن البحر ١٧٠٠ متر ، وتبلغ مساحتها زهاء ٣٠٠٠ كيلو متر ، وتحيط بها الجبال من كل جانب

وفى الجنوب وديان كثيرة تأتى من حافات الجبال ، وأهمها نهر وادى « جبة » وهو الذى ينبع من الحافات الجنوبية للمنطقة الجبلية الداخلية ويجرى فى الأرض المتموجة والسهلة

وتبدأ الوديان من حافات الجبال الشرقية ، وتمتد إلى السهول ، وإذا ما نزلت الأمطار جرت فيها المياه

ومن المياه ما تتكون منه البحيرات الجنوبية فى أرض الحبشة ؛ وهذه البحيرات واقعة على طوار الخط الممتد من الشمال

الشرق إلى الجنوب الغربى ، وتنتهى فى شمالى بحيرة «فيكتورية» وأخطر هذه البحيرات بحيرة «رودولف» فى الجنوب وبحيرة «استفانى» فى الشمال

تقسيم الأحباش البلاد

والأحباش أنفسهم يقسمون بلاد الحبشة إلى ثلاثة أقسام من حيث أوصافها ، وإليك بيانها :

القسم الأول : وهو القسم المنخفض ، ويتفاوت الارتفاع فيه من (١٠٠٠ إلى ١٨٠٠) متر ، وهذا القسم حار وتتفاوت درجة الحرارة فيه من ٢٠ إلى ٤٠ درجة سنتغراد ؛ وفى هـذا القسم المقاطعات «هرر» و «كاتا» و «يديتو» و «سيدامو» و «شافكالة» ؛ والحرارة فى المحلات المنخفضة ، وفى الوديان لا تطاق ؛ والزرع فيه هو الذرة . وفى المحلات المرتفعة من هذا القسم يزرع قصب السكر والقطن والزعفران والموز والتمر الهندى والبن والنخيل وغير ذلك

القسم الثانى : وهو القسم المتوسط من حيث ارتفاع الأرض إذ يتفاوت العلو فيه من (١٨٠٠ إلى ٢٤٠٠) متر . وتختلف درجة الحرارة فيه من ١٤ إلى ١٩ سنتغراد ، والهواء فيه جيد ، والربيع دائم ، وتكثر فيه المياه والغابات

القسم الثالث : وهو القسم المرتفع ويتفاوت الارتفاع فيه من (٢٤٠٠ إلى ٣٤٠٠) متر ، ومناخه يشبه مناخ جبال الألب ، والشتاء فيه شديد وبرده قارس . وتختلف درجة الحرارة فيه من ١٠ إلى ١٢ سنتغراد ويجمد الماء فى الليل . وبينما نجد القسم الأول جهنم الحبشة نرى القسمين الثانى والثالث جنتها

التقسيمات الإدارية

تنقسم بلاد الحبشة إلى عدة مقاطعات ، ويحكم كل مقاطعة رأس ، وهو بمنزلة ملك تلك المقاطعة وله سلطة مطلقة عليها ناهلا ارثاً بحقوق الاقطاع . وكثيراً ما أطلق عاهل الحبشة على نفسه ملك الملوك بعد إخضاعه الرءوس فى المقاطعات وتوحيده المملكة

وفيما يلى المقاطعات الخطيرة :ـ

(١) مقاطعة «تيجرى» وهى واقعة فى الشمال ومتاخمة لأريترة الصومالية والسودان ، وفيها العاصمة المقدسة «أكسوم»

(ب) مقاطعة «أمحره» ، وهى واقعة إلى جنوبى مقاطعة تيجرى ومتاخمة للسودان

(حـ) مقاطعة «غوجام» ، واقعة إلى جنوبى مقاطعة أمحرة

(ى) مقاطعة «شوعا» ، وهى من أخطر المقاطعات وفيها عاصمة الدولة «أديس أبابا»

(هـ) مقاطعة «كاتا» ، وهى واقعة إلى الجنوب ومتاخمة للسودان ولمستعمرة أوغاندة البريطانية وفيها يزرع البن

(و) مقاطعة «أوجادن» ، وهى واقعة إلى الجنوب الشرقى ومتاخمة للصومال الطليانى

نبذة من التاريخ

يزعم العلماء الضليعون فى معرفة الأجناس والشعوب أن الأحباش هاجروا من جزيرة العرب إلى إفريقية عن طريق اليمن ، ويعللون انتماء اللغة الحبشية إلى اللغات السامية بتلك الهجرة

والمحقق أن الأحباش احتكوا بالمصريين فى قديم الزمان واقتبسوا منهم بعض مظاهر الحضارة ؛ ولما امتدت فتوح المصريين إلى بلاد النوبة والسودان اشتدت هذه الملاقة . ويؤيد التاريخ استيلاء الأحباش على مصر العليا وتأسيسهم أسرة حاكمة هناك . ويزعم الأحباش أن الملك منليك الأول هو ابن سليمان من بلقيس ملكة سبأ . وشاعت النصرانية فى الحبشة فى أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ورسخت فيها بعد ذلك . والمعلوم أن أبرهة قائد القوات الحبشية الذى استولى على بلاد اليمن وتقدم نحو الحجاز كان نصرانياً . والشائع أن الداعى إلى هجوم الأحباش على اليمن هو الانتصار لبنى دينهم أهل نجران

وكان الأحباش يدينون بالنصرانية لما هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً من الاضطهاد . وشاعت اليهودية فى الحبشة فى عهد هذ الملك . وتخليداً لهذه الذكرى أحدث ملك الحبشة فى سنة ١٨٧٤ وساما سماه «وسام خاتم سليمان»

وفى القرن السادس تبع الأحباش الكنيسة المصرية التى اعتقدت أن ليسوع (عيسى) طبيعة واحدة ، وانضوى الأحباش من ذلك التاريخ لبطريرك الاسكندرية

وفى القرن السابع استفاد اليهود القاطنون فى الحبشة من الانشقاق فى العقيدة المسيحية ، واتفقوا مع المارضين والوثنيين

وتغلبوا على الأحباش فأخرجوهم من مقاطعة أكسوم وحكموا البلاد زهاء مائتى سنة . وفى نهاية القرن الثامن قضى (لاليبا) على حكم اليهود ورجع الأحباش يحكمون بلادهم معتنقين المذهب اليعقوبى

المسلمون والأحباش

ولم يتوجه العرب فى عهد فتوحهم نحو بلاد الحبشة بل اكتفوا بالاستيلاء على بلاد مصر والسودان فقط ، وذلك على ما نعتقد لسببين : أولهما بعد بلاد الحبشة عن طريق الاستيلاء ومناعتها ، وثانيهما ذكرهم للأحباش بخير لأنهم آووا المسلمين الأولين وآمن نجاشيهم برسالة الرسول

وفى القرن الثامن عشر ثارت الحروب بين الأحباش والمسلمين الذين أحاطوا ببلاد الحبشة من كل جانب . وقبل منتصف القرن الخامس عشر احتك البرتغاليون بالأحباش من أجل الحصول على موانئ صالحة فى مغامراتهم فى بحر المحيط الهندى ، وسعوا لتأسيس علاقات ودية بينهم وبين الأحباش ، وعقدوا أول معاهدة فى سنة ١٥١٥ ؛ وكان من نتائج هذه المعاهدة أن المسلمين أخذوا يتوغلون فى بلاد الحبشة لمحاربة الأحباش حلفاء البرتغاليين ، وكلما انتصر المسلمون على البرتغاليين فى البحر الأحمر وفى خليج عدن انتقموا من الأحباش الذين ناصروا البرتغاليين فى حروبهم

وفى سنة ١٥١٧ تحرك جيش كبير من المسلمين من « زيلع » وهجم على بلاد الحبشة واستولى على « أكسوم » العاصمة المقدسة ، و « جوندار » عاصمة المملكة . وبعد أن مد البرتغاليون الأحباش بالمدافع وتولى « كريستوفوس دغاما » قيادة الجيش الحبشى انكسر المسلمون وانسحبوا

ولما استولى العثمانيون على مصر اشتدت علاقة الترك بالأحباش ، وأخذ سلاطين آل عثمان يساعدون المسلمين فى البحر الأحمر على محاربة البرتغاليين والأحباش ، وكان من نتائج ذلك أن استولى العثمانيون على مصوع وبربرة وهما من موانئ الحبشة ، وتوغلوا فى الداخل ، وأخذ المسلمون القاطنون فى السهول يشددون العزائم للهجوم على بلاد الحبشة ويسعون لنشر الدين الاسلامى فيها

(يتبع) طه الهاشمى

من ضحايا الوطنية

شارلوت كورداى

لتوماس كارليل

بقلم الأستاذ حسن عبد الحليم اليمانى

يعى التاريخ مشهداً يذكره وسط الغموض والاضطراب اللذين لفا مدينة « كان » الفرنسية كما لفَّا العالم بأسره فى طليعة عهد الثورة الكبرى : أما مكانه فساحة مجلس « كان » النيابى ، وأما أبطاله فرجل وفتاة أوشكا أن يفترقا بعد لقاء — هما النائب باربارو و شارلوت كورداى (« دارمان » كما كانت أسرتها تلقب قبل الثورة التى ألغت رتب النبل وألقابه) كانت فتاة فارعة العود فى عامها الخامس والعشرين ، يتلألأ محياها جمالاً ووداعة ؛ وكانت على أن ترحل إلى باريس فى أمر ما ، ولهذا تقابلت وباربارو لحملها توصية وتقدمة إلى صديقه الباريسى النائب دوبريه ذاكراً فى خطابه « إنها لجمهورية الهوى من قبل أن ينادى بالثورة منادٍ ، وإنها لم تكن فى حاجة أبداً إلى الحماسة ، ففى قلبها منها الكفاية » . « أما الحماسة فى رأيها فهى تلك العاطفة التى تدفع بالمرء إلى بذل روحه طائعاً فى سبيل بلاده »

وقبيل ظهر الثلاثاء التاسع من شهر يوليه من العام الرابع للثورة ، اتخذت شارلوت مكانها من عربة بريد « كان » الراحلة إلى باريس مزودة بخطاب باربارو وبقليل من متاعها الخفيف . لم يكن فى وداعها — كسنة السفار — أحد يتمنى لها رحلة طيبة موفقة ، فهى قد بيتت عزيمتها بينها وبين نفسها مخلفة لأبيها رقعة تفضى إليه فيها بأنها فى طريقها إلى انجلترا ، وأنها ترجو أول ما ترجو أن يغفر لها فعلتها وأن ينساها إلى الأبد . وزحفت عربة البريد بحملها ، وكأنما لازمها نحس ملح ، مازال يدفع بها وئيدة مهومة حتى بلغت جسر « نيلى » ، وحتى لامست عجلاتها ثرى باريس فى ضحى يوم الخميس ١١ يولية ، حيث شهدت عينا شارلوت مدينتها المنشودة تطالع السحاب بقبابها الحديدة السوداء . وفى فندق البروفدانس بشارع دى فيو أوجستين

« La rne des Vieux Augustines » احتجزت لنفسها غرفة سرعان ما احتواها فراشها ، وسرعان ما راحت فى سبات عميق بقية النهار وطيلة الليل ، فلم تستفق منه إلا وشمس الجمعة قد علت فى الأفق

غادرت شارلوت فندقها فى ذلك الصباح لمقابلة النائب دوبريه ، فلما سلمته رقعة صديقه باربارو علم منها أن لصاحبتها أوراقاً تتعلق بأسرتها ، وأن صديقه يرجوه مساعدتها حتى تحصل عليها من وزارة الداخلية . وأنالها دوبريه بغيتها وقضت نشدتها فى اليوم نفسه ، وغادرته ولم تشر بطرف إلى رحيل أو بقاء . وفى باريس طالعت نواحى عديدة وصوراً متباينة ، ولكنها لم تهتد إلى لقاء « مارا Marat » [1] والتحقق من قسمات وجهه فقد احتبسه المرض إذ ذاك فى منزله

باتت ليلتها فى الفندق ، حتى إذا أسفر الصبح غادرته حوالى الساعة الثامنة لتشترى خنجراً ، ثم لتأخذ عربة من ميدان الانتصارات « La place des Victoires » ميممة مسكن مارا بشارع مدرسة الطب رقم ٤٤ ، حتى إذا بلغته حال مرضه دون لقائها ، فأهمها أن تفشل فى وسيلة ركزت فيها كل آمالها وأحلامها . يالشارلوت الجميلة المنكودة ! ويالمارا القبيح المنكود ! أى قدر يسعى بفتاة من (كان) فى أقصى الغرب ، وبرجل من نيوشاتل فى أقصى الشرق ليلتقيا ؟ وأى شأن يربط بين حظهما فيجذبهما إلى أن يصطدما ؟

وإذ عادت إلى فندقها بعثت اليه بورقة تحمل اسمها واسم بلدتها : « كان مهد الثورة » ، وتحمل فوق هذا رجاءها ولهفتها إلى لقائه ، حتى تدفع اليه « ما يعينه على أن يسدى لفرنسا يداً » ولكنها لم تتلق عليها جواباً ، نخطت اليه أخرى أقوى من سابقتها رجاء وعاطفة ، وحملتها بنفسها إلى مسكنه فى مساء اليوم نفسه ١٣ يولية

كان مساء شاحباً ، وقد مضى على المساء الذى سقط فيه الباستيل أربعة أعوام كاملة ، ذلك المساء الذى وقف فيه مارا على رأس جموع الشعب ، طالباً من رجال فرقة الهوسار - حرس الباستيل وكانت قلوبهم مع الشعب - أن يخلوا أمكنتهم وأن يلقوا بأسلحتهم . وبهذا الحدث ارتفع مارا إلى الذروة — ذروة البطولة والوطنية ، وهاقد مضت أربعة أعوام حافلة — فأية طريق اشتقها مارا إلى المجد وأية طريق دفع بنفسه فى شعابها ؟

لقد كان فى الآونة التى يممت فيها شارلوت صوب داره ، ينتقع فى حوض استحمامه ، وقد تجرد من ملابسه إلا قليلاً ، وكانت الساعة حوالى منتصف الثامنة مساء ، وكان منهوكاً محطماً يحمل فى يده قصاصات من الورق ، وأمامه منضدة مثلثة القوائم ، يتكئ عليها كلما هم بالكتابة . كان وحيداً فى مسكنه اللهم إلا إذا اعتبرنا خادمه الشوهاء رفيقة تطرد الوحدة وتخفف أثقالها . فهل انتهى به الطريق إلى أن يلقى خاتمته على هذا الوضع وفى تلك الصورة ؟

قُرع الباب وتكرر القرع ، ونفذ إلى مسمعيه صوت لين حلو ، يرفض صاحبه أن يغادر مكانه من الباب أو تقضى حاجته . كانت صاحبته هى المواطنة شارلوت كورداى ، تلك التى تريد « أن تعينه حتى يسدى للوطن يداً » - عرف (مارا) من كلماتها تلك أنها صاحبة الرقمة الأولى التى وصلته ، فنادى خادمه : أن دعيها تدخل ؛ ودخلت شارلوت قائلة : « أيها المواطن مارا ! إننى من (كان) مهد الثورة ، وأريد أن أفضى إليك بأمر »

فرد عليها قائلاً : « اجلسى يا طفلتى ! ما وراءك من أخبار كان وأخبار خونتها ؟ ومن ترى فيها من النواب الآن ؟ »

ولما سمت له شارلوت بعض النواب ، زمجر « صديق الشعب » قائلاً : « ستطاح رؤوسهم فى مدى أسبوعين » ؛ واجتذب المنضدة إليه ثم أخذ يكتب « باربارو ، بتيون . . . » واستدار فى الحوض مصلحاً من جلسته « بتيون . . . لوفيه و . . . » ، وفى أسرع من اللمح استلت شارلوت خنجرها من غمده ، ثم أهوت به إلى قلبه . لم تمهله حشرجة الموت طويلاً ؛ فلم يستطع إلا صرخة واحدة : « إلىّ ياعزيزى - الغوث ياعزيزى ! » سارعت الخادم إليه فاذا به لقىّ لا روح فيه ، وقد انكفأ على وجهه الذى بدا مغيظاً محنقاً . . . وهكذا قضى مارا « صديق

---

(١) هو جان پول مارا — ولد فى نيوشاتل إحدى مدن شرق فرنسا سنة ١٧٤٣ ولما شب درس الطب ثم احترفه حيناً فى لندن . وفى احتدام الثورة عاد الى باريس حيث أصدر صحيفته المعروفة « صديق الشعب » وقاد الشعب بقلمه وخطبه حتى جاء عليه وقت حكم فيه فرنسا مشتركا مع صديقيه روبسبير ودنتون فى حكومة الارهاب الثلاثية .

الشعب » وليس إلى جواره صديق !

إلى هنا تمّ لشارلوت ما دبَّرت ، وأنَّى لها أن تلقى جزاء عاجلاً محتوماً . . . فقد تدفق الجيران على صرخة مارا الأخيرة والتفوا بشارلوت التى قاومت قليلاً ، حتى إذا حضر الشرطة أسلمت نفسها لهم طائعة . واقتيدت لتوها إلى سجن « أباى Abbaye » حيث احتوتها إحدى غرفه هادئة ساكنة ، وقد ماجت باريس حول محبسها ، ودوَّت أصوات الشعب فى خليط يتذبذب بين الدهشة والغضب والاعجاب

بعد أيام أربعة ، طالعت الجموع المحتشدة فى قصر العدالة ، حيث تعقد محكمة الثورة ، وجه شارلوت جميلاً هادئاً كعادته ، وما إن دخلت القاعة حتى سرت فيها همهمة ليس من السهل أن نستبين العاطفة التى أوحتها ! — وهنالك وقف تنفيل Tinville ليقيم الدعوى مستعيناً بالشهود وبائع الخنجر الذى حضر المحكمة ليدلى بالواقعة أمامها ، ولكن شارلوت قاطعته قائلة « لا حاجة بكم إلى هذه التفاصيل

« إننى أنا القاتلة »

« وبايحاء من ؟ »

« لم يوح إلى أحد »

« إذاً فما الدافع ؟ »

« جرائمه » ثم زادت فى صوت صاخب مرتفع « لقد قتلت فرداً لأنقذ مئات الألوف ، مجرماً لأنجى أبرياء ، حيواناً مفترساً لأريح بلداً بأسره ! لقد اعتنقت مبادىء الجمهورية قبل أن تقوم للثورة قائمة ، ولم أكن أبداً فى حاجة إلى الحماسة أو التشجيع ! »

وهكذا قطعت عليهم كل سبيل إلى الكلام ، وحملق الجمهور مشدوهاً بينما أتم القضاة إجراءاتهم فى صمت وسكون ، وصدر الحكم باعدامها لجريمة القتل فتلقته هادئة ، وفى لهجة رقيقة تشف عن روح نبيلة عالية شكرت محاميها ، كما شكرت القسيس الذى أحضروه لها معتذرة له فى لطف بأنها ليست فى حاجة إلى شىء من بضاعته !

وفى مساء ذلك اليوم نفسه خرج سكان باريس — على بكرة أبيهم — إلى الطرقات والمنافذ ليلقوا على شارلوت نظرة أخيرة ..

وظهرت عربة السجن المشئومة تحمل تلك المخلوقة الصغيرة فى ملابس الاعدام الحمراء ، حلوة وادعة ، غضة الاهاب ريانة الغصن تسعى إلى حتفها وحيدة وسط هـذا العالم الصاخب ! كثير هم أولئك الذين حيوها فى احترام برفع قبعاتهم ، فأى قلب لا يمس هـذا المشهد قرارته ؟ بينما طاوعت بعض الآخرين نفوسهم فزمجروا وهدرت أصواتهم لدى رؤيتها !

وفى « ميدان الثورة » حيث ينتظرها الموت ، لم يتسلل إلى أساريرها الجميلة الهادئة أى شحوب أو فرق ، بل حافظت على ثباتها وحيويتها ؛ ولما تقدم الجلادون لقيد ساقيها ، احتجت متذمرة ، وقد حسبت أنهم إنما يفعلون ذلك رأفة بها ، وقد لحظوا فى أنوثتها ضعفاً لا يقوى على مجابهة الموت إلا مكبلاً ! حتى إذا أفهموها أنها إجراءات تتبع فى كل حالة اعتذرت لهم باسمة وخضعت راضية !

وفى المشهد الأخير عند ما جردوا عنقها من لفائفه وهيأوه لسيف الجلاد ، تمشت فى عنقها ووجهها الجميل حمرة من خجل العذارى ظلت تصبغ خديها النديين حتى بعد أن رفع الجلاد رأسها المفصول ليراه جمهور النظارة !

فيا للجمال ويا للقبح ممثلين فى شارلوت ومارا ! يصطدمان فيلاشى كلاهما الآخر ! ويا لكما من منكودين أنهلهما العدم كأسه مترعة ! فلتناما فى أحضان أمكما الأرض ، تلك التى حملتكما معاً !

حسن عبد الحليم اليمانى

في الأدب الانجليزي

٤ ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

الأشباح : Ghosts

تشمل الأشباح التي وردت في روايات شكسبير نوعين مختلفين : أشباحاً مرئية وأشباحاً غير مرئية . أما الأشباح المرئية فهي التي في استطاعة كل شخص أن يراها ويبصرها . وأما الأشباح غير المرئية منها فهي التي اختفت عن أعين الجميع إلا عن أعين بطل الرواية

استعمل شكسبير نظرية الأشباح في عدد غير قليل من رواياته ومؤلفاته ، فهناك شبح في رواية الملك ريشارد الثالث لم يره إلا ريشارد وريشموند ، وهناك شبح آخر في رواية يوليوس قيصر يعجز الخدم عن رؤيته بينما يظهر جلياً لبروتس . وفي رواية سمبالين أشباح متعددة تظهر لبوشيموس في سجنه في حالة لا يراها الحرس والسجانون

وكانت مخاطبة الأشباح تقتصر على نفر قليل ممن كانت لهم قوة التنبؤ والاستنباط ، فكان في استطاعتهم أن يرسلوا الأرواح في مهماتهم الخصوصية . وقد ذكرهم شكسبير في كثير من رواياته كرواية سمبالين ورواية يوليوس قيصر بقوله : « قد استطعت التغلب على روحي الخفية بواسطة حيلك السحرية » وفي رواية (All'is Well That Ends Well) بقوله : « هل يوجد هناك من مشعوذ يستطيع أن يزيل ما أمام عيني من الشك »

وهذا النوع من الرجال كان ينتظر منه الالمام باللغة اليونانية واللاتينية والاضطلاع الواسع على الآداب القديمة . وتظهر لك هذه الميزة جلياً في رواية هملت عند ما يظهر الشبح ، فيقول مارسيلوس مخاطباً هوراشيو : « إنك متعلم ومطلع على الآداب ، ولذا وجبت عليك مخاطبته يا هوراشيو »

ويصحب ظهور الأشباح عادة تغيير في الأنوار ، فنرى ريشارد الثالث يشعر بتغير في الأضواء قبل ظهور الشبح ؛ وفي رواية يوليوس قيصر نرى نفس الظاهرة بجلاء ووضوح ، فيرى بروتس تغيراً في ضوء الشمعة يسترعي انتباهه ويهتف قائلاً : « ما لهذه الشمعة قد شحب ضوؤها ؟ من القادم ؟ »

وتظهر الأشباح بصورة عادية مرتدية نفس الملابس التي كان أصحابها يرتدونها قبل موتهم . ففي رواية هملت يظهر الشبح بنفس الأردية التي كان يرتديها الملك قبل وفاته ، وهذا ما دعا هوراشيو إلى الهتاف قائلاً : « إنه ليشبه والدك تمام الشبه مرتدياً نفس الملابس والأسلحة التي كان يرتديها قبل وفاته » ؛ وفي رواية مكبث يظهر شبح بانكو بنفس الحلة التي وجد فيها قبل وفاته لساعات قليلة

ولهذه الأشباح طبائع غريبة وأخلاق شاذة ، فهي لا تستطيع احتمال الأسئلة الكثيرة بل تهملها . وفي رواية هنري السادس نرى الشبح وقد ضاق ذرعاً بالأسئلة الكثيرة التي وجهت اليه فأجاب سائله بقوله : « اسأل ما بدا لك ولكني لا أجيب إلا عما أريد الاجابة عنه »

وكانت الأشباح تفضل الصمت على الشغب والضوضاء ، ولذا نرى بروسبيرو يطلب الهدوء التام عند ظهور الأشباح . وتختلف هذه المخلوقات الغيبية عن سابقتها بكونها لا تستطيع الظهور مطلقاً إلا عند سدول الظلام ، فلا يظهر الشبح في رواية هملت إلا بعد غروب الشمس ؛ وعندما يشعر باقتراب النهار يفر مسرعاً إلى عالمه العلوي . فالنهار والضوء عدوان لدودان للأشباح

قال جبسن في ختام بحثه عن الأشباح : « إن المهارة والمقدرة التي أظهرها شكسبير في تصوير الأشباح لما يؤكد لنا اعتقاده الجازم بها (1) » وهذا الحكم الذي يصدره ناقد معروف كجبسن لجدير بالتفكير والبحث . نعم إن شكسبير لم يوفق في بحثه عن الأشباح وتصويرها كما وفق في الساحرات والجنيات ؛ فخياله المبدع الذي رأيناه سابقاً لا نشاهده في الصورة الحالية ؛ وقد يكون هذا النقص ناتجاً عن عدم اعتقاده بالأشباح ؛ خصوصاً وأن الرجل لا يحسن ما لا يؤمن به ويعتقد فيه ، فكان بحثه تعوزه المقدرة ، وينقصه الخيال الواسع والفكر العميق

(1) Gibson. Sh's use of The Supernatural ?. 31

العفاريت : Devils

كان من السائد على معتقدات الناس فى ذلك العصر أن العفاريت هم من سلالة الآلهة القُدامى . وما عفاريت شكسبير إلا صور مصغرة من آلهة الرومان واليونان والفلسفة الشمالية ، فهم مصدر شقاء وينبوع آلام . نعم إن مقدرتهم لم تصل الى تلك الدرجة من القوة التى وصلت اليها مقدرة الساحرات ، ولـكنهم رغماً عن ذلك كانت لهم القدرة الـكافية على الاختفاء بالشكل الذى يريدون

وفى رواية تايمون أثينا (Timon of Athens) نرى وصفاً مسهباً لهذا النوع من العفاريت عند ما يتكلم المهرج قائلاً : « إنها روح شريرة تظهر مرّة بشكل سيد من الأسياد ، وأخرى بشكل محامٍ بارع ، وثالثة بشكل فيلسوف شهير »

وكانت فى بعض الأحيان تتخذ لها وسيطاً من بنى البشر ، فيكون لهن من روحه مكاناً يقمن فيه ، ويعامل هذا الرجل (المسكون) عادة أشد المعاملة وأقساها ، فهو عرضة للشتائم وشتى أنواع العـــذاب والهوان . وفى رواية (مهزلة الأخطاء) (Comedy of Errors) نرى بنسن يخبر خليلته بأن زوجها وخادمه قد أصابهما مس من الجنون ، وأن العفاريت قد اتخذت من روحيهما مسكناً مريحاً ، فمن الواجب إذن القبض عليهما وايداعهما حجرة مظلمة

وفى حديث غرامى بين روزاليذ وعاشقها رولاندز فى رواية (كما تريد (As You Like it)) نرى الفكرة نفسها واضحة جلية ؛ فهى تقول له : « إن الحب جنون ، وما العاشق إلا مجنون يجدر به أن يكون حبيس غرفة مظلمة لا يدخلها الضوء ؛ ولـكن الحب لا ينزل به هذا النوع من العقاب ، لأن الحكام والقضاة قد كانوا فى نفس الحالة يوماً ما ، ولذا كان من الواجب مداواته بالنصيحة والمشورة »

يندر أن تجد عفريتاً من هذه العفاريت يظهر بشكله الحقيقى على مسرح شكسبير ؛ ولا أذكر فى رواياته كلها غير مرة واحدة تراءى العفريت فيها للنظارة ، وهذه المرة تقع فى رواية هنرى السادس عند ما تدخل العفاريت المسرح بعـد إلحاف شديد من الساحر (لابوسيل) ، فيقومون بأعمال كثيرة تمد فى حكم المستغربة الشاذة ، فيدخلون دون أن ينطقوا بأية كلمة ، ومن ثم يلقون برؤوسهم الى الأسفل ، ثم يرفعونها مرة ثانية ويغادرون القاعة حيث لا رجعة بعد ذلك

من هذه الأعمال الغريبة التى كان العفاريت يقومون بها نستنتج أن هـذه المخلوقات تعد من أغرب أنواع المغيبات ، وتختلف عن سائر الأنواع الأخرى باختفائها الدائم فى الهواء ؛ وقد ختم جبسن بحثه عن العفاريت بقوله : « إن شكسبير لم يهتم بهذه المخلوقات اهتمامه بالأنواع الأخرى المشابهة لها ؛ وإن معاملته الشاذة لها لجديرة بالاستهزاء بدل الاجلال والتقدير [1] » وهذا الحكم على درجة كبيرة من الصحة والصواب ؛ فلا نجد هنالك إلا عددا قليلاً من الأماكن التى يأتى ذكرها فيها ؛ ولو فرضنا جدلاً أن شكسبير ذكرها فى عدة أماكن لرأينا أن ذكره لها لا يتجاوز عـددا من الأسطر ؛ ثم يتركها على ألا يعود اليها ثانية . ومن هـذا يظهر جلياً أن شكسبير كان يحتقر هذا الاعتقاد فى العفاريت فلم يولها جانباً من اهتمامه

(يتبع) خيرى حماد

(1) Gibson. Sh's Use of the Supernatural P. 33

الدكتور محمد اقبال

فلســفته

معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب

للسيد أبو النصر أحمد الحسينى

إن أول مَن لَحِظَه التوفيق بين فلاسفة الغرب فى أن يثبت بالدلائل القاطعة والشواهد الصادقة أن الانسان لا يقدر على حل العقد المستغلقة والمعضلات الغامضة فى هذه الكائنات بالعقل المجرد، هو الفيلسوف الألمانى الكبير (كانت). وعلى هذا أثبت كانت عن طريق فلسفى ضرورة وجود الله ولزوم الايمان به، وبرهن فى مصنفه «نقد العقل العملى» على أن قواعد عقل الانسان العملى ودعائم عمله ووطائد اختياره ثلاثة: حرية الارادة، وخلود الروح، والايمان. ووضح أن الانسان لا يمكن أن يكون مسئولا عن أعماله إذا لم يكن فيها بالخيار. لذلك كان (كانت) بكشف هذه الحقائق وأمثالها فى عالم الفلسفة قد قام للانسانية بخدمة عظيمة

ونحن قد أبنا لك فى المقال السابق أنه على حسب فلسفة اقبال أيضاً يكون لكمال الانسان وتقدمه ثلاث دعائم: احراز الغاية القصوى من الحرية والاختيار بنيل الأنانية العظمى، ونيل الخلود باتصاف الأنانية بحالة الجد المستمر، ثم بلوغ منزلة الخلافة الالـهية التى هى نهاية عليا لذلك الكمال والتقــدم: فعلى هذا يتفق اقبال مع كانت فى التصورات الثلاثة أساسياً، ويختلف عنه فى أن ليس لدى كانت تصور الخلافة الالـهية. وأما تصور (كانت) الثالث وهو الايمان فهو أساس جميع تصورات اقبال، لذلك لم يحتج اقبال إلى اثبات ضرورة وجود الله والايمان به فى فلسفته كما احتاج اليه كانت، ولأن مبدأ فلسفة اقبال الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر. وآخر الجد المستمر الايمان كما هو أوله، لأن الانسان لا يقدم على عمل ويستمر فيه إذا لم يك مؤمناً بنتيجته ونجاحه فيه، وكذلك اقبال لم يحتج إلى اثبات قانون أخلاق خارجى كما احتاج اليه كانت فى بيان نظريته الأخلاقية، لأن قانون الأخلاق عند اقبال ينجم عن ضروريات الأنانية الباطنية، فكل شىء يقوى الأنانية عنده خير وحسن، وكل ما يضعفها شر وقبيح؛ فكأن أنانية الانسان المتصفة بالجد المستمر عنده ضمنية لانتاج ذلك القانون، فلا يحتاج إلى البرهان والدليل

ويختلف إقبال عن كانت فى أن اكتساب الحرية والاختيار ونيل الخلود والدوام فى فلسفته ثمرة الجهد المستمر لا يفوز بها إلا الذى انصفت أنانيته بتلك الصفة، أى الجد المستمر. فكل من رغب فيها وطمح إليها ينبغى له عنده أن يسعى لذلك بعزم وحزم لا يشوبهما على الزمن خلل ولا وهن، وأما كانت فقد تصدى لفكرة الحرية والاختيار والخلود والدوام فى فلسفته ليقول إن العدل جار فى الكائنات وإنه يوجد فيها المطابقة بين الأعمال ونتائجها، وبين الأمور وعواقبها

إن فلسفة إقبال فلسفة تفاؤل لأنها تخلق فى الانسان الأمانى تترى، وتبعث فيه الهمة القصية المرمى، وتحفزه لبذل الجهد واستفراغ الوسع فى تحقيقها بالمثابرة والمواظبة. فهى لذلك تخالف فلسفة التشاؤم التى كان أكبر أئمتها الفيلسوف الألمانى شوبنهاور. كان شوبنهاور هذا متأثراً بأفكار البوذية الهندية، فنظر إلى العالم نظرة التشاؤم، وقرر أن حقيقة الكائنات القصوى هى الارادة، لكنها لا تقدر أن تملك لقصدها مشمولاً خاصاً يمكن أن يعرض عملياً فى الذهن، لأن كل مشمول مثل هذا يتعلق بخارجها. فلذلك تملك الارادة الكونية لقصدها نفسها، أى هى تريد لأن تريد. هى تريد لأن تكون حقيقياً، فان كل شىء حقيقى ليس إلا الارادة المثلة. فبهذا المفهوم سمى شوبنهاور تلك الارادة «إرادة الحياة»، ورأى أنها جوهرياً شر، فانها لا يمكن أن تقنع؛ هى ألم. هى ألم غير القانع؛ وعلى هذا فالحياة حمأة الطموح الذى لا يشبع، وثورة التوقان الذى لا يقنع. لذلك كانت نهاية الانسان دائماً فى الشكوى، ولن يتم له حسن الحظ أبداً. ولكن إقبالا يرى أن سوء الحظ وآلام الحياة أكثر فائدة للانسان إذ بها تربى أنانيته وتدرب، فيطأ بها أعراف المجد، ويتسور شرفات الكمال؛ ثم شوبنهاور ينكر الفردية أى وجود الأشــياء المنفردة أو «الارادات المنفردة» كما يقول، ويرى أنها وهم لأنها تتوقف على الفروق الزمنية والمكانية، بينما أساس فلسفة إقبال هو الفردية

أما من يوجد بين فلسفته وفلسفة إقبال معالم المشابهة وملامح المماثلة أكثر فهو الفيلسوف الألماني الكبير نيتشه . والمزية الكبرى لنيتشه هذا بين فلاسفة الغرب أن عبقريته صبغت الفلسفة بصبغة الالهام ، ولم تكتف في المباحث الفلسفية بانتقاد الفن ، بل أتت للعالم بمقياس جديد للحسن والقبح ، والخير والشر . وفلسفته ثمرة مزيج من أفكار كانت ، وشوبنهاور ، وداروين . فقد استنبط من نظرية العلم لكانت أن ليس هناك شيء يقال له علم ، بل كل شيء خيال ووهم ، وذلك لأن الحقيقة لا يكشف عنها بل تُخلق ، ولا يبحث عنها بل تُخترع ، وهو أيضاً قد قرر مثل شوبنهاور أن حقيقة الكائنات القصوى هي الارادة ، ولكن ليست « إرادة الحياة » كما رأى شوبنهاور بل « إرادة القوة » ، وهي عنده مصدر كل خير وفلاح كما أن « إرادة الحياة » عند شوبنهاور منبع كل شر وخسران . وما أحسن قول البعض ان ما يراه شوبنهاور شيطاناً يراه نيتشه إلهاً

يرى نيتشه أن « إرادة القوة » هذه دافع قويّ غريزيّ سار في الكائنات ، فهو مركز الحياة الانسانية ، بينما إقبال يرى أن مركز حياتها هي الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر . ولكنهما يتفقان في أن خوض غمار الآلام ومكابدة المصائب ، ومعاناة النوازل ، مما لا محيص عنه لصعود الانسانية في معارج الشرف ولبلوغ تقدمها غاية الكمال . ويتفقان أيضاً في أن هذا العالم المادي هو ذريعة إلى تلك البغية ووسيلة إلى ذلك المطلب ، وأن الفن[1] يجب أن يكون ملتقى الجمال والقوة كما يتفقان في أن فلسفة الأخلاق المسيحية غير وافية لضروريات تقدم الانسان وتسنمه ذروة الكمال . غير أن نيتشه قدح فيها قدحاً شديداً وانتقدها انتقاداً لاذعاً وصرح بأن المسيحية تدعو إلى « أخلاق العبيد » في حين أن إقبالاً اكتفى بالاشارة إلى أنها غير مفيدة للانسانية لأنها لا تقدر على إماطة اللثام عن قواها الخفية ، ولا على الكشف عن استعداداتها المكنونة ، وذلك لأنها تدعو إلى الرهبنة وترك العالم . وبناء عليه فدعوة إقبال خلاف ذلك كما قال في بيت ترجمته :

غص في البحر وحارب الأمواج
فإن خلود الحياة في المحاربة

يتفق إقبال ونيتشه في تصور كمال الانسانية ؛ بيد أن نيتشه يراه ممثلاً في سوبرمان (أي فوق البشر) وإقبال يراه في خليفة الله . والفرق الأساسي بين تصوريهما هو أن نيتشه ينكر وجود الله ويقول : « اقتلوا الله ! » Alles ist erlaubt « كل شيء مباح . إن الطبيعة والدوافع الطبيعية ليست شراً . ابعدوا الحياء والكظم ! ابعدوا الأدب والتقيد ! إن أخلاق الرجل الحر ستكون الأخلاق المعبرة عن الذات حقيقة » ، وعلى هذا فسوبرمان نيتشه محصور في نفسه ومحدود في ذاته ، ليس لديه غاية يجري اليها ولا هم يتفرّغ له . وأما الخليفة عند اقبال فخياله الأنانية العظمى ، أي الله ذو الرحمة الواسعة ، وصاحب العطاء المتصل ، فله عنده الدرجات العلى ، يجزى بها بما يسمى ؛ ثم سوبرمان نيتشه عار عن العاطفة جافي الطبع ، شديد الوطأة ، لأن روح أفكار نيتشه أرستقراطية ، فرأى أن حقيقة الكائنات القصوى « إرادة القوة » ؛ وقرر أنها هي الدافع الغريزي الأقوى في الانسان فعليه أن يطلبها ، ولكن هذا الطلب غير المشروط كان ينجم عنه نظام القِيَم الذي ظلت الحضارة مشتبكة فيه إلى الآن . فهنا أتى نيتشه بفكرة « وراء الحسن والقبح[1] » فارادة القوة عنده لا تعرف حدود الحل والحرمة ، والحسن والقبح ، لأن كل شيء مصدره ونهايته قوة ، عندها حلال وحسن ، وكل شيء مصدره ونهايته ضعف ، عندها حرام وقبح ، والعقائد كذلك ليست عندها متساوية متماثلة ، فالفرق الحقيقي بينها ليس عندها من حيث كونها حقاً وباطلا ، بل من حيث كونها مفيدة وغير مفيدة . وهكذا شمرت أرستوقراطية نيتشه بضرورة « Umwertung aller Werte » ، أي تغيير جميع القِيَم ، فمثل في آن واحد دور الفيلسوف ، والمصلح الاخلاقي ، والشارع ، وخالق الحضارة الجديدة . وكان في دور ارتقاء أفكاره الأخير شاعراً بمهمته هذه

فعلى هذا النمط وصل نيتشه إلى تصور كمال الانسانية في صورة « سوبرمان » بازاء عامة الناس الذين هم موضع قنوطه ويأسه . فانشأ فكرته الجديدة للحضارة بتوزيع الاجتماع

(١) قد بينا رأي الدكتور في الفنون والملاهي في مقال تأخر نشره لمرض الأستاذ صاحب الرسالة ، وسينشر بعد فراغنا من فلسفة إقبال

(١) أي « Jenseits von Gut und Böse » ، وهو أيضاً اسم لمصنف نيتشه

الانسانى فى طبقتين متناقضتين : ذات أخلاق السادة وذات أخلاق العبيد . وقرر أن الأولى منشأ سوبرمان ، وأن لأفرادها وهم الأقوياء حق معاملة أفراد الأخرى وهم الضعفاء بالظلم والعدوان ، وإن واجب القوى فى شريعة الارتقاء وتنازع البقاء الولوغ فى دماء الضعيف وفتح جميع أبواب الجور عليه بكل وحشية ، فان السوبرمان أو الانسان القوى الكامل الصالح للحياة لا يظهر إلا بتدمير الضعيف غير الكامل وغير الصالح للحياة . وأما طبقة الضعفاء أو « ذوو أخلاق العبيد » كما يسميهم هو فقد خلقوا لاستعمال الأقوياء فقط ، وهم موضع بأس نيتشه ، لذلك سد عليهم نيتشه جميع أبواب التقدم كما سدت ديانة البراهمة على المنبوذين فى الهند

فلذلك كان تصور الخليفة لدى إقبال خيراً من تصور السوبرمان عند نيتشة ، لأن روح أفكار إقبال الديموقراطية الاسلامية (1) فالخليفة عند إقبال شخصية محبوبة إلى جميع طبقات البشر تسمى لخيرهم ، وتسبغ من خصب طبعها عليهم وتقربهم إلى نفسها ؛ فكلما تقربوا اليها تتدرج حياتهم فى مدارج الكمال ؛ وهى تمثل اللين كما تمثل الشدة . وهاتان الصفتان لا محيص عنهما لتقدم الاجتماع البشرى . قال إقبال فى بيتين ما ترجمتهما :

اخلق من حفنة ترابك
جسماً أوطد من حصن منيع
وليكن فى داخله قلب رقيق
كالنهر فى جنب الجبل الراسى

إن ما حدا بنيتشه إلى هذه التصورات الارستقراطية هو خوضه غمار الأدب اليونانى ، وهو لم يشعر بأن النظام الاجتماعى اليونانى فى هذا الأمر كان ناقصاً . فلو شعر بذلك لم يحسب العبودية كالجزء الضرورى للتمدن . فظهور سوبرمانه فى الحقيقة على حساب تلك العبودية ، وهو يحوز قصب السبق على جهود هؤلاء العبيد ، وعلى هذا فشخصيته عند فلسفة إقبال ليست بأكثر من شخصية مستجد ؟

« للمقال بقية » السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

(1) ليست الديموقراطية الأوربية لأن الدكتور اقبال يفرق بين الديموقراطية الأوربية والديموقراطية الاسلامية ، ونحن قد بينا الفرق فى حاشية مقالنا السابق فراجعه

كلمات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

حياةٌ ولكن الحياة تزول / ودنيا ولكنَّ البقاء قليل
ودهرٌ طويلٌ ماله من نهاية / ولكنَّ فيه العيشَ ليس يطول
وشمسٌ يسرّ الناظرين طلوعُها / ولكن لها بعد الطلوع أفول
وفي كل يوم للنهار إذا أتى / غدوٌّ ومن بعد الغدو أصيل
ربيعٌ ولكن لا يطول زمانُه / وزهرٌ ولكن يعتريه ذبول
وإن حياة المرء آفةُ نفسه / فإن لم يغُلْه الموت فهي تغول
وفي القبر قد تبقى من الميْت أعظم / ومما بناه أرسمٌ وطلول
وما الموت للانسان إلا ضرورة / فينشأ من جيل تقاعس جيل

***

يواري الفتى تحت التراب صديقَه / ويدفن في الأرض الخليلَ خليل
كأن الأسى جمرٌ له من لهيبه / ذوائب أصلى نارَها وذيول
كأن فؤادي يستحيل بها إلى / دموع ومن عيني الدموع تسيل
أمامي أرى ماءً نميراً وبي صدى / ومالي إلى الماء النمير سبيل
يبيتُ ابن أرض الرافدين على الطوى / ويشبع من خير البلاد دخيل
وما الأرض بين الرافدين شحيحةٌ / ولا الماء يسقي الرافدين قليل
تهون فلول السيف في حومة الوغى / إذا لم تصب نفسَ الكماة فلول
أفكر في الماضي فلا هو عائدٌ / إليّ ولا عن ناظريّ يزول
ولو كنتُ ممن يؤثرون نفوسهم / لملتُ مع الأيام حيث تميل
طريقي طريق الصدق لو كان منجياً / فما ليَ حتى الموت عنه نكول
ولي كبدٌ أخشى عليها من الجوى / إذا ما نأى بالظاعنين رحيل
وكم مرةٍ واريتُ صحبيَ للثرى / على وجه مَن عزّوا عليّ أهيل
يقولون ما للدهر يقسو بصرفه / عليك ويبغي غِرّةً ويصول
ومن أنا من دهري فيطلب غِرّتي / ويغريه بي بعد المشيب ذُحول

***

أكوّن رأيي في الحياة مفكراً / ولكنّ رأيي في الحياة يفيل
ورب عويصٍ في الحياة أمامه / يظلّ سواءً عالمٌ وجهول
من الدهر تبغي خَلْقَ ذي عبقرية / ولكنه بالعبقريّ بخيل
من الغُرّ أما عقله فهو راجح / يصيب وأما وجهه فجميل
ويعرف من نور السهى ما بجوفها / على أن ما يأتيه منه ضئيل
إذا الشمس ذرّت من وراء حجابها / فللأرض منها غرّة وحجول
ألام على نَيْلي من الشعر شهرةً / ومَن ذا يعاف المجدَ وهو أثيل
يجيش بصدري الشعر من سورة الأسى / فأشدو به مستعبراً وأقول
ورب يراع جاء في كفّ شاعر / بما لم يجئه السيف وهو صقيل
إذا امتلك الذعرُ النفوسَ فجاءة / فأوّل ما يَلقى الضياع عقول
وإن حياة الشيخ بعد صراعه / وخيبته عبءٌ عليه ثقيل
لقد حال مني كل شيء عرفته / سوى ذكريات لا تكاد تحول

الموت

للاستاذ فخري أبو السعود

أيا قادماً تخشى النفوسُ قدومَه / لأنتَ صديقٌ في ثياب غريم
قدومُك تحريرُ الأسارى ولو درتْ / لما أنكرتْك النفسُ يوم قدوم
كما يُنكرُ الطفلُ الطبيبَ وعنده / له بُرْءُ أسقامٍ ودَمْلُ كلوم
بلَوْتَ نفوسَ الخلق من عهد آدم / فأنتَ بها يا موت جِدُّ عليم
إذا قست الدنيا على مُتعَبٍ بها / بسطتَ له لأياً جناحَ رحيم
ومن شفّهُ قيظُ الحياةِ أغثتَه / ببَرْدِ نسيمٍ في الأصيل رخيم
فأنت لِنِضْوِ العيش من دون صحبه / ومن دون قرباه أبرُّ حميم
وأنتَ دواءُ الجسم قد خيلَ داؤُه / تُميط الأذى عن مُوجَعٍ وسقيم
وأنت بلاغُ النفس حَيْرَى مَرُوعةً / بوادي شُكوكٍ جمّةٍ وهموم
وفيك ابتعادٌ عن جهالة جاهل / وعن قول مأفونٍ وفعل لئيم
وعندك نسيانٌ وطول زهادة / لكل مُرادٍ في الحياة عقيم
فأنت - وإن غلتَ المنى - أطيبُ المنى / وفيك نعيمُ المرء أيّ نعيم
لعمرك ما حَيٌّ بأرْوَحَ منزلاً / على الأرض من بالٍ بها ورميم
ولو علم الجاني لما جادَ عامداً / على خصمه بالموت جُود كريم

وتمحو يداك الحقدَ والخوفَ والأسى
وكلُّ بلاءٍ فى النفوسِ قديم

وكلُّ بلاء لم يسغ طعمَه الفتى ... عليه طَوَى بالأمس كشح كظيم
وأنت تُريح الفكر من كلِّ مُعْضِلٍ ... يظَلّ لهُ فى حَيرةٍ ووجوم
وتطوِى عن الأجفان صفحةَ عالمٍ ... مَلِيءٍ بأنواع الشرور ذميم

وتطوى كتابَ الأمس طيًّا وما مضى
من بغيضٍ ذكرُه وأليم

عزاءٌ لبعض الناس أنك قادمٌ ... وأن شقاءَ العيش غيرُ مقيم

المادة

للأستاذ محمود غنيم

فتّشتُ بين الناس عن زاهدٍ ... فلم تقع عينى على واحدِ
ما أزهدَ المرءَ إذا لم يجدْ ... وأبعــدَ الزهدَ عن الواجد
لا يُزْهَى إنسانٌ بآدابه ... أو يفتخرْ بالسـلف البائد
المجــدُ إما سطوةٌ أو غنًى ... ما العاجزُ المعدمُ بالماجد
فقيمــةُ الشعب اذا قستها ... بقيمــة الصَّادر والوارد
وقيمــةُ الفرد بما يملك الـ ... ـفَرْدُ من الطَّارف والتَّالد
كم طفلةٍ أوْدَعَ من هِرّةٍ ... حَوّلهــا الجوعُ إلى مارد
قد يُحسدُ المرءُ على رزقه ... ولا أرى للفضـل من حاسد
لم يفتتن بالمكرُماتِ امرؤٌ ... والغانياتُ فتنــةُ العابد
العــلمُ والأخلاق ما قُدِّسا ... إلا لنفع منهمـــا عائدِ
لا يَردعُ التاجرَ عن غشّه ... إلا اتّقاء المتجرِ الكاسد
لم يَختَر الناسُ دياناتهم ... بل أخذوا بالمذهَب السائد
ليس جمالُ الطبع فى غادةٍ ... مثلَ جمال اليَـدِ والسَّاعد
يا زاعمَ العفّةِ فى حبــه ... ما تبتغى من كاعبٍ ناهد؟
لم يتّقِ اللهَ امرؤٌ للتقى ... بل لنعيم الجنـــة الخالد
تيمت الناسكَ حُوريةٌ ... ذاتُ قوامٍ أهْيَفٍ مائد
تَسقيه كأساً حُلوَةَ الطعم من ... خمرِ الجنانِ السيِّغ البارد
لولا جمال الحورِ ما لامَسَتْ ... أرضَ المُصلِّى جبهةُ الساجد
هل كنتَ تلقى فى الورى ساعياً ... لو كان يسعى الرِّزقُ للقاعد
سِيَّان مَنْ يسعى إلى قُوتِه ... بالسلْبِ أو بالوَرَعِ الزائد
كم لحيــةٍ أجْدَى على ربِّها ... من ألفِ سَهمٍ بيَدِ الصائد
جُرْحُ يد المرءِ لهُ قائدٌ(١) ... وما لجُرحِ العِرْضِ من قائد
كم مُجرمٍ يقتُـل روحاً ولا ... يُجزَى جزاءَ القـاتل العامد
قد يُترَكُ الأولادُ من جهلهم ... صَرْعَى ولا حدَّ على الوالد
صاحِ دَعِ الرُّوحَ ودع قُدْسَها ... نحن عبيــدُ الجسدِ الفاسد

(١) من القود بمعنى القصاص

حمامتى!

للشاعر الانجليزى « كيتس Keats »

بقلم عيسى وهب الله الشمبيرى

أظنها من حزنها قد ذوت ... ورفرف الموت على وكرها
ويلاه! ماذا ساءها فانزوت ... تطفىء بالحزن سنا عمرها؟

* * *

كانت على سيقانها الناعمة ... خيوط خز صنعتها يدى
تزهو بها، كالوردة الحالمة ... على غُصينٍ مائس أملد

* * *

جفت وأبلى السقم سيقانها ... واحسرتا من سكرات السقام!
يا زهرة أذبل عيدانها ... عصف الردى كيف أتاك الحمام؟

* * *

قد ضمك الغاب زماناً مضى ... لم تسعدى فيه بنجوى الحبيب
والآن قلبى وكرك المرتضى ... فكيف هدت جانبيك الكروب

* * *

والحَص الأبيض كم أشرقت ... فى ثغرك المحبوب حباته!
والشاعر المحزون كم صفقت ... فوق لماك العذب قبلاته!

* * *

فلِمْ هجرت الدار لم تسعدى ... بين يدى فيها بعيش مصون!!
لو كان أمر الموت طوع اليد ... فديتك اليوم بروحى الحزين!

القصص

صور من هوميروس

١٢ - حروب طروادة
بتروكلوس
للأستاذ دريني خشبة

إن يكن قد أصاب الطرواديين قَرْحٌ فقد أصاب الهيلانيين قَرْحٌ مثله

ذلك أنه ماكاد يغادر نبتيوما حومة الوغى ، صادعاً بأمر الإله الأكبر ، حتى أفاق الطرواديون وأحلافهم ، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين غادر الحومة مارس وزبانيته

أفاق الطرواديون إذن ، وصحا زيوس من رُقْية حيرا ، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على جنودها من شانئي أخيل ، وإلا أن يحيق بهم مكر هذا السحر الذى ملأ جفنيه ، وغلّق سمعيه ، وأطلق أيديهم فى أبناء طروادة يضربون منهم كل عنق كريم وكل بنان ! !

وما هى إلا أن لم الطرواديون شعثهم ، ورتقوا فتقهم ، حتى استطاعوا أن يعيدوا الزحف ، ويأخذوا أعداءهم المزهوين بنشوة النصر ، على غرة منهم ؛ ويطّلع سيد الأولمب من ذروة جبل إيدا فيمكن لهم من أبناء هيلاس ، ثم يسلط عليهم صواعقه ، ويفتح عليهم السماء فتمطرهم بعذاب واقع ، ليس له من دونه دافع ، إلا أن يُثار لابن ذيتيس ، حبيبة القلب ... ومنية النفس !

وفزع أوليسيز إلى رمحه ...

وأجاممنون إلى سيفه ...

وديوميد إلى صَعْدته ...

وأجاكس إلى جُرازه ...

وفزع الجنود الى أسلحتهم يشحذونها ، والى دروعهم يلبسونها ، والى الجياد الصافنات يمتطون صهواتها .... والى الواقعة فيخوضون غُبارها ، ويثيرون عجاجتها ...

ولكن ! ... بلا جدوى ... !

فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر ؛ وضُيِّق عليهم حتى نظروا الى الهزيمة تأخذهم من هنا وهنا ؛ ورأوا الى هكتور كالأسد الهصور يزلزل الساحة بزئيره ، ويثير فى قلوب جنوده الحمية باقدامه ، وأينما توجه توجه الموت فى ركابه ، وقطرت المنية من سنان سيفه ، وانقدح الشرر من حوافر خيله ، وتناثر الزبد من أشداقها ، فيكون سُمّاً فى قلوب الهيلانيين

وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجئ ، وشاعت الخيلاء فى أعطافهم حين أبصروا فرأوا أوليسيز يغادر الميدان متأثراً بجراحه ، وأجاممنون يفر بنفسه كأحقر الأجناد ، وديوميد محمولاً الى سفينته كمن يجود بروحه ، وأجاكس العظيم يولى دبره غير متحرف لقتال .... فأوقدوا مشاعلهم ، وأججوا نيرانهم ، واعتزموا اضرامها فى أساطيل الأعداء ، ليكفوا طروادة شرورهم ، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم ، وليتم نصرهم ...

وهنا ... ... ؟ ! !

انتفض بتروكلوس ! بتركلوس الكبير ، صديق أخيل ، وأعز الناس عليه ، وجذوة الحماسة المتأججة فى ضلوع الميرميدون !

لقد نظر بتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم الى البحر فتلق بمتادها فيه ، ثم يسبح منهم من يسبح الى الأسطول الحزين الذى بدا عليه كأنه يرثى لرجاله ، ويبكى على أبطاله ، ثم يغرق منهم خلق كثير ، فيبتلعهم اليم ... الى غير عود ... ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين ... ثم نظر أخيرا فرأى الى حَمَلة المشاعل والنيران يزحفون إلْباً فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية ، لو أعملوا منجنيقهم فى قذفها لأصبح الأمر

ـير الأمر ، ولأتوا على آخر قوة لبني قومه ، ولباء بنو قومه بالفشل العظيم ! ولماذا الميرميدون كاسفي البال يحملون الى هيلاس ... مصارع اخوانهم ، الذين تخلى عنهم أخيل وجنوده وهم ... ما يكونون حاجة اليهم ؛ ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى ... الضغينة التي بينه وبين أجاممنون حتى في هذه الساعة العصيبة ، ... لنصرة اخوانه اليونانيين ، وليدفع عنهم هذا البلاء الذي ... بهم ، وليرد عنهم عادية هذه الكلاب التي تنوشهم ... صفوفهم ....

ورأى بتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون الى وطنهم ... بجانهم من نيران الطرواديين ، يجرون أذيال الخيبة ، ... أكفان الفشل ، فثارت في قلبه نخوة الجندي الباسل ، ... في أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته ... يملأ بها السهل والجبل ، ثم تفطر قلبه أسى وحسرة على هذه ... الهيلانية التي تتدافع الى البحر ..... فكأنها تفر من ... الى موت ، وتنجو من حمام الى حمام ..... فذهب من ... الى أخيل ، واقتحم بابه غير مستأذن ؛ وقال :

« أخيل ! »

« فتى هيلاس وغوثها في كل روع ! »

« يا سليل الآلهة ، المترفع عن الدنايا ! »

« أرأيت ؟ ! . . . »

« ماذا تتحدث القرون إذا قيل إن الهيلانيين باءوا بالهزيمة ، ... ينهض أخيل لنصرتهم ؟ وماذا تحمل الى هيلاس إذا أبنا غداً ... أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة ؟ وكيف نلقى الأمهات ... على أبنائهن ؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة ... عن هذا اليوم الأسود الذي بدت بوادره ، وأخيل العظيم ... يحرك ساكناً ؟ وكيف نتقي نقمة الشعب الذي ندبنا لهذا ... إذا خُنا أمانته ، وبددنا ثقته ، وحطمنا آماله ؟ وأين ... الشهرة الطويلة التي أحسبنا خدعنا بطراوة العيش فيها ... الأحاديث المعسولة عنها ؟ »

« أخيل ! »

« بل فكر متى إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة في دمائنا ، ... يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم ، وتحرق ... ، ثم لا تعتزم غزو هيلاس العزيزة ، لتثأر لهذه السنين السوداء التي أذقناهم طوالها رهق الحياة وخبائة العيش ! ! »

« ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة ، وأنى له جيش بعد هذا الجيش المُراع ، ومن لنا بأسطول يعنو له الموج ، وتذل لعزته البحار ؟ »

« أخيل ! »

« انظر إلى الميرميدون تكاد تقتلهم الحُنْقَةُ على هذه البلادة التي أخمدت سورة الحرب في نفوسهم ، وأطفأت جذوة البطولة في قلوبهم ... انظر إليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة إخوانهم ، وليلقوا على هكتور درساً في النزال لا ينساه آخر الحياة ! »

« مالك لا يحركك هذا اللظى يا أخيل ؟! إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك أحقادهم ، ويدفنون سخائمهم ، ولا يبالون ألف متعسف أفاق مثل أجاممنون ! إن هذا يوم هو كله للوطن من دون أيام الدهر جميعاً ، فاذا أفلتت فرصته من أيدينا ، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدي الهيلانيين جميعاً ؛ ولن يقال في سبب ذلك إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصرة الوطن ، وفي سبيل إشباع شهوة الخصومة قامر بالوطن ، وأبناء الوطن ، ومستقبل الوطن ! . . »

« إيه يافتى هيلاس ، وحامي ذمارها إذا اشتد بها الكرب! »

« مالك تصمت هكذا كأنك تسمع إلى ألف قرن تناديك ، وتضع ثقتها فيك ؟ ! »

« أنا زعيم لك يا فتى هيلاس ، أن هذه الجحافل الطروادية سترتد على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرّة عليهم إذا رأوا خوذتك التي تكسف بلألائها شمس الضحى ، وشاهدوا هذه الشعرات البيض التي تزين ذؤابتها ! »

« أخيل ! »

رد على أعز الناس عليك ، فالظرف أحرج من المطل ، وأقصر من هذا الصمت ! والساعة مفزعة مروعة ، وإخواننا في الوطن والآلهة يصرخون ويموتون !

« أخيل ! »

إن كان يعز عليك أن تحنث في عزمتك التي عزمت ، فأذن لي أن ألبس خوذتك ، وأمتشق سيفك ، وأحل في دروعك السوابغ ، ثم أسوق الميرميدون باسمك ، فأرد عادية القوم ، وأجير

إخواننا الهيلانيين ! ... ...

وكان پتروكلوس يكلم أخيل وكأنما كان وحى السماء يتنزل على قلب البطل ، بلاغةً وحرارةً وقوةَ إيمان وثباتَ يقين ، ونفساً تجيش بالحب وأقدس المنى لوطنٍ مصابٍ فى أبطاله ، منقوصٍ فى عزائم بنيه ، يتلفّت من خلف البحار ، يرى ماذا يصنع أخيل فى هذا الروع ، وجنوده الميرميدون !!

وهب أخيل من جلسته الخاملة ، وأخذ يدَىْ پتروكلوس فى كلتا يديه ، وطبع على جبينه المرتجف قبلةً مهر بها صك التضحية فى سبيل الوطن الشقى ، وقال لصديقه :

« پتروكلوس ! أخى ! يا أعز جنودى علىّ !

« أما أن أذهب أنا فأرد هذه الذئاب ، فلا ! ولكنى آذن لك بكل ما أردت من قوة وعتاد ، ما دمت تؤثر صالح الوطن ، وتحرص على حقن دماء الهيلانيين »

پتروكلوس ! لا يَدُرْ بخلدك يا صديقى الكريم أننى انتويت أن أغضب غضبةً لا انتهاء لها ؛ ولكننى أُمرت أن أنتظر حكم السماء بينى وبين خصمى الذى لم يتورّع أن يهتك أمر السماء ، فيسلبنى ثمرة خلعها رحى على ، وقدمها لى جيش بأسره . . . هلم يا پتروكلوس فالبس دروعى واسبغ عليك لأمتى ، وشرف خوذتى بجبينك ، ولأذهب أنا فأعد لك الميرميدون ، ولتبرهنوا لذاكر الجميل أننا سبب مجده وخير جنده ، وذخيرته كلما حزبه كرب ، أو ألم به خطب

« هلم . . . . . . هلم . . . . . . »

***

وانطلق أخيل فصاح بجنوده ، فهرعوا اليه فى سُفُنِه الخمسين ، الراسية بمعزل من سائر الأسطول الهيلانى . . . . وكم كان رائعاً أن يتحرك أسطول أخيل ، فى أحرج ساعةٍ مرت بهذا الجيش المغير ، الذى وقع فريسة كله فى قبضة الطرواديين ! لقد كان أجاممنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل ؛ وكأنها الخلاص من الموت الذى يلاحقهم ، والمنايا التى ترقص فوق هاماتهم ، وهى مع ذلك فيما خُيل لهم تزورّ عنهم ، وتشيح عن نجدتهم ، لأنهم لؤموا مع زعيمها ، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصاً له !

أقلع أسطول أخيل ، ولكنه لم يقلع ليفر من واجبه ، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن ، حين يهبطون إلى الشاطىء من كبسة الصفوف الظافرة ، المشغولة باستئصال شأفة الهيلانيين

وما هى إلا ساعة حتى رسا شمال طروادة ، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه ، وكأنهم كسف من العذاب أرسله نيتيون ، رب البحار ، من أعماق اليم ليقذف بها فى قلوب الطرواديين !

وطفق أخيل يجيشهم ، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم ؛ فكان على رأس الجحفل الأول البطل الحلاحل ، والقائد المناضل ، منستيوس بن سپرخيوس ، ابن السماء وصاحب المزة القعساء . ؟ . وعقد لواء الجحفل الثانى لابن هرمز المقدام ، الفتى يودوروس ، الذى طالما كان جزعاً فى فؤاد الردى ، ووجلاً فى قلوب المنايا !! . ووضع على رأس الجيش الثالث القائد پزاندر ، ابن ميالوس ، صفى الآلهة وهبة الأولمب . وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس ، الذى آثر البقاء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسيز وأجاكس ، يفاوضون فى الصلح من قبل أجاممنون ؛ أما الجيش الخامس فقد عقدت رايته لابن ليرسيز ، ألكميدون العظيم ، أخى الغمرات وصاحب الثارات

أما پتروكلوس ! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل ، يجرها جواداه الأشهبان ، إكسانتوس وپليوس ، أعز خيل زفيروس ، وأحب دوابه اليه ، ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروع فى النفوس : فهذى خوذة أخيل تتألق فوق هامته ، والريح العاصف تداعب شعراتها فتجعل منها بركاناً يقذف الحمم . وهذى دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين ، كأنها لبدٌ نبتت فوق حيد جبل شامخ ينطح السماء برَوْقيه

وتقدم أخيل فصافحه ، ومنحه شرف القيادة العامة ، وخطب الجنود فقال :

« إيه أيها الميرميدون ! هذا يومكم !

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة ،وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلتم الجبال وخرقتم الأرض ؛ ولقد كنتم تعذلوننى فتقسمون على فى أنى احتجزتكم هنا ووقفت فى سبيلكم دون نصرة إخوانكم ، فها هو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم وانقذوا أجاممنون مما حاق به ، ولا يجرمنكم شنآنه ألا تغيثوه ، أغيثوه فنصره عزلكم ؛ شد الآلهة أزركم ، وباركت

الأرباب أسيافكم ، وأحبت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه ؛ سيروا على بركة زيوس ، وفي حمى حيرا ، وعين مينرفا تكلؤكم »

وانطلق الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم ، ورجف الوادي رجفة أجفل منها السهل والجبل ؛ إذ كانوا ينسابون فلا يربعون على شيء ، ويتدفقون فما تحجزهم لابة (١) ، ولا يعوقهم جُرُف ، وتسجد من دونهم حزون الأرض وآكامها

وانتظم خميسهم (٢) ؛ فبرز القلب تتبعه الميمنة ، تلقاءها الميسرة ؛ وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطروادين

ونفخ في البوق فانقض الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين ، فبدّلوا نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت ، وانطفأ في أبصارهم بريق النصر فكان أغطش من ظلام الهزيمة ؛ ونظروا فرأوا تلك الخوذة الذهبية التي طال عهدهم بها ، وحسبوا أنهم أصبحوا بنجوة منها : خوذة أخيل التي كانت تكفي وحدها لألقاء الرعب في قلوب الطرواديين ، وقذف الوجل في نفس كل منازل أو مناجز

وتصايح بعضهم ببعض : « يا للهول ياصاح ! لقد أقبل أخيل ! النجاء النجاء ! أين كان الطاغية ؟ . . . . » ثم تنادوا يحذر بعضهم بعضاً : « أيها الطرواديون ! خذوا حذركم ! الفرار الفرار من الداهية الجبار ! لقد قطع الميرميدون رجعتنا ! دعوا الهيلانيين وانشدوا خلاصكم ، إلى البوابة العظمى ! أيها القاتلون ! لا تزحموا الجسر ! القهقرى القهقرى ! ... ... » إلى آخر هذا النداءات المزعجة الواجفة . . .

ولكن أين يهرب الطرواديون من بتروكليس ؟ !

لقد كان إكسانثوس وبليوس — الجوادان الكريمان — زوبعتين مُعْصَبتين ، تثيران الرهج وتعقدان العجاجة ، في جميع أنحاء الميدان : في القلب ، في الميسرة ، في الميمنة ، في الجناح الأيسر ، في الجناح الأيمن . . . . بل . . . في السماء ! !

وكانت الشمس ، شمس طروادة الملتهبة ، تعكس أضواءها على خوذة أخيل ، فتذيب أفئدة الطرواديين !

واختلط نظام القوم ، وتدافعت جموعهم مذعورة مولية نحو الجسر الكبير ، الذي نصبوه فوق الخندق حول إليوم . ولم يحتملهم ، فهوى بالألوف المؤلفة في جوف الخندق ؛ ولكن المؤخرة ، وكانت غالبية الجيش ، لم تنتبه لما حل بأكثر المقدمة وكذلك تدافعت لا تلوى على شيء ، فجعلت من جثث الموتى قنطرة تعبر فوقها إلى . . . طروادة ! !

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها ، ثم جال بتروكلوس جولة هنا وجولة هناك ، يبحث عن أصحاب النداءات المنكرة التي كانت تملأ الساحة شماتة بالهيلانيين ، منذ لحظات ، فلقي منهم برنوس فصرعه ، ثم ثستور فجندله ، ثم اريالوس فأرسل به الى الجحيم ، وعشرات غيرهم من بني طروادة النجب

وكانت أعز أمانيه أن يلقى هكتور ؛ فسعى اليه وضيق الحصار عليه ، وأرسل اليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته ؛ ولكن ، يا لهكتور ! ! لقد ريع من هول ما رأى من مقاحمة بتروكلوس ، فألهب جياده الضاريات فمدت به وأنقذته من قتلة محققة وموت مبين

ولشد ما شده بتروكلوس إذ رأى الى جانبه فتى هيلاس ، ومحاربها الصنديد أجاكس ، يقود فلول الهيلانيين ، ويقتحم بهم الحلبة كرة أخرى ! ؟ غير مبال بجروحه التي يتدفق من أفواهها الدم صبيباً

وكم كان سرور الهيلانيين عظيما حين استيقظوا من سكرة هزيمتهم فرأوا جنود أخيل الأمجاد يذودون عنهم ، ويردون عادية الموت والقتل والغرق عن جموعهم ! ؟

ونشبت ملاحاة بين بتروكلوس قائد الميرميدون ، وساربيدون (١) البطل الطروادي الكبير ، أدت إلى مبارزة دامية ، وانتهت إلى فجيعة طروادة في أشجع فتيانها بعد هكتور ! إذ شكه بتروكلوس شكة جرعته غصة الردى ، وقربت اليه ورد الحمام ! ! . . . . . .

وانكشفت غمة الهيلانيين

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر ، ودفعوه غالياً وعزيزاً ! ! يا للهول !

لقد قُتِل بتروكلوس ! !

فمن لك بعده يا أخيل ! !

(لها بقية) دريني خشبة

(١) أرض لابة أي كثيرة الحجارة والنؤى

(٢) أطلق العرب الخميس على الجيش الكبير لأنه يتكون من خمس فرق : الميمنة والميسرة ، والجناحان ، والقلب — فهل كانوا يأخذون هذا النظام عن الأغريق ؟

(١) نأسف أشد الأسف لعدم اتساع هذه الصور لايراد ملاحاة ساربيدون وهي من أروع صور الالياذة (الكتاب السادس عشر)

٣ـ رحلة الى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

ولقوم عادات عجيبة فى الأفراح ، فاذا ما تم الاتفاق على المهر وقدره ستة ريالات (ومن هنا جاءت الأغنية القديمة : بستة ريال بابا جوزنى) تعهد به الزوج على أن يدفع عند حلول أحد الأجلين الموت أو الطلاق ، ثم يقدم قطعاً من القماش ، وفى ليلة الزفاف يدعى الأحباب إلى الطعام ، ويطوف عليهم خلال ذلك كشف بأسمائهم ، فيتبرع كل منهم بما تجود به نفسه ، وقد شهدت فرحاً اكتتب المدعوون فيه بأربعين جنيهاً ، وذلك الاكتتاب يعد ديناً عليه يؤديه كلما دعى فى أفراحهم ؛ وجل تكاليف الفرح تقع على عاتق أهل الزوجة ؛ وفى ليلة (الحنة) تمشط رأس العروس فى حفل كبير يحضره نساء من الفريقين وتلبس حلى ثقيلة من فضة ، تكاد تغطى جسمها كله ، والعجيب أنها مقترضة من الغير فلا يجوز لها أن تلبس حليها الخاصة إلا بعد الزفاف ، وتلك الحلى المقترضة ترد لأصحابها بعد الزفاف بأيام ؛ وفى ليلة الزفاف يقوم بين الفريقين شبه شجار ومشادة يشترك فيها نساء الفريقين ، طائفة تحاول أخذ العروس بالقوة ، والأخرى تحاول منعها ، وعند بزوغ الفجر تخطفها إحدى السيدات وتجرى بها الى بيت الزوج ، وبعد أن يدخل الزوج بها يظل الثلاثة الأيام الأولى نافراً من أهله وصحبه ، يخرج قبيل الشمس ويظل فى الحقول الى المساء لكيلا يراه أحد منهم ، وفى ذلك شىء من التأدب والاحتشام لا بد منه ! ثم يعد أهل العروس صحافاً من طعام (الرقاق) أو من العدس والحمص يسمونه (أطقاع) يحمل الى بيت الزوج ، ويحاول أهل الفريقين أن يتخاطفوه فى الطريق ، فان وصل الى الزوج سالماً أكله وإلا اتهمه الناس فى الطريق تيمناً . وفى صباح اليوم الأول من الزفاف (الصباحية) يعد أهل الزوج (شجرة العرس) وهى من جمار (لباب) نخلة طيبة تخرط فى شكل أنيق وفى طول العروس ثم تزين بالأعلام وسائر أنواع الفاكهة ، وتعلق عليها الحلى الفضية التى كانت قد اقترضتها الفتاة ، ثم تحمل تلك الشجرة وسط حفل يكاد يحضره كل أهل البلدة ، ويطاف بها فى الطرق إلى أن تصل بيت العروس ، وهناك تقوم وسط البيت أياماً وكأنها عروس قامت تعوضهم عن فتاتهم ، وإذا ما قاربت اليبس قطعت وأكل منها المحبون ، وبخاصة الفتيات اللواتى يرغبن فى الزواج تيمناً وتبركا ؛ وإذا ما رزق الزوجان مولوداً سارع المحبون بتقديم قطع من قماش أبيض إن كان المولود ذكراً أو قماش ملون إن كانت أنثى ، وقد تبلغ تلك القطع بضع مئات تسد حاجة الطفل من الملابس شطراً كبيرا من عمره . وإذا مات الزوج عكفت الأرملة فى معزل من الناس جميعاً لتقضى عدتها وقدرها ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وفى صبيحة اليوم الأخير تخرج لزيارة قبر زوجها ، والويل لمن لاقاها فى طريقه إذ ينصب عليه نحسها ، لذلك ينبه الناس بعضهم بعضاً ألا يخرجوا فى الصباح لأن (الغولة) ستكون فى طريقها إلى المقابر ؛ وقد يطوف بالنبأ مناد ينبه الناس ، وبعد عودتها تقصد إحدى العيون (عين طموس) فتغتسل فيها ، فان اتفق أن لاقاها شخص أصابه نحسها كله ، وإلا استأجر أهلها فقيراً يلقاها ليرفع عنها وصمة النحس ، وبعد ذلك تسير حرة ولا ضير على من لاقاها أو تحدث إليها أو رغب فى زواجها . وعادة الندب ولطم الخدود شائعة لديهم ، ومقابرهم متجاورة ، إلا من اشتغل بالذبح (القصابون) ، أو بعصر الزيتون ، فهؤلاء يدفنون فى أماكن نائية ، فكأنهم من المنبوذين

ومن أشهى الأطعمة لديهم (لِمْصَفّة) وهى مزيج من القرع والطماطم واللحم والزيت ، ثم (إنقطه) وهى فطير بالزيت والعجوة ، وكل غذائهم بالزيت ، ولا يكادون يعرفون (السمن) قط ؛ وأحب المشروبات عندهم (اللقبى) يتخذ من عصارة لباب النخيل ، وذلك بأن يكشف عن لباب النخلة ويجرح وتوضع تحتها آنية يتجمع فيها السائل ، وقد تدر النخلة منه صفيحة كبيرة (٤ جالون) فى اليوم الواحد ، وتظل تعطى النخلة هذا القدر زهاء نصف عام ، ثم تموت ، لذلك تراهم لا يأخذون من النخيل الجيد إلا القليل كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على حال الشجرة فيضنيها . وطعم ذلك الشراب وهو طازج حلو لذيذ ،

لكنه إذا ترك قليلا تخمر فأصبح مسكراً قوياً ، وهم يشربونه متخمراً ، وبعضهم يدمن تناوله

ويدهشني تقاعد الناس هناك عن استغلال موارد تلك الواحة الغنية ، فالأرض المنزرعة محدودة جداً وهم لا يحاولون زيادتها رغم وفرة المياه وسهولة الري فيها ، وحتى البساتين لا تلقى من عنايتهم إلا القليل رغم أن المنطقة جد صالحة لسائر أنواع الفاكهة والزيتون والحبوب ، وقد تمثل الفرق أمامي مجسماً بين الناس هنا وبين أهل (الواحات الخارجة) فهم هناك يستنبتون الحبوب وبخاصة الأرز والقمح والشعير بكثرة هائلة ، وينتجون غلتين في الأرض الواحدة كل عام ، ويعنون بتسميدها ولا يفتأون يوسعون المساحة المنزرعة يوماً بعد يوم وينقبون عن ينابيع جديدة ؛ أما أهل سيوة فمتواكلون قانعون حتى ملاك الأراضي يتركونها لطبقة العمال (الزجالين) ولا يكاد المالك يزور بستانه مرة كل أعوام . وعندي أن الحكومة لو أوفدت طائفة من (الصعايدة) وأقطعتهم مساحات في مجاورة الينابيع في سيوه لكان لتلك الواحة شأن آخر في الانتاج خصوصاً وأن الطرق المعبدة الجيدة تربطها بالسلوم ومطروح والسيارات تقطعها في أقل من عشر ساعات

قمنا نودع سيوه عائدين إلى مطروح ، ثم أقلتنا إحدى الطوافات وكانت أجمل البواخر وهي (الأميرة فوزية) إلى السلوم فقضينا يوماً كاملاً ونحن نسير إزاء السواحل المصرية الوطيئة . وفي باكورة الصباح دخلنا خليج السلوم الذي حاكى (الحويصلة) في تقوسه ورسونا على شاطئه الرملي فأشرفت الجبال من ورائه في طوق هائل أظهر لنا متعة الموقع من الناحية العسكرية ؛ وتلك الجبال هي حافة الهضبة الصحراوية الداخلية التي تؤدي إلى الحدود الطليانية وارتفاعها ١٩٠ متراً . وما كادت الباخرة ترسو حتى تهافت أهل البلدة عليها في جموع لا حصر لها من سائر الطبقات ، وكانت تبدو عليهم علائم الفرح والسرور لأنها تحمل إليهم مؤونتهم من الطعام والخضر والفاكهة وحتى الماء لأن موارد ماء الشرب هناك معدومة تقريباً ، فالباخرة تملأ لهم مستودع الماء الذي منه توزع على الموظفين يومياً بمعدل (صفيحة واحدة) لكل فرد ، وإن اعوزهم الماء بعد ذلك أتوا حاجتهم من المياه المكثفة من البحر وقد قامت الآلة المكثفة (كندنسر) على حافة الماء . على أن ماءها رغم نقاوته غير صحي لخلوه من المواد اللازمة للجسم التي لا يخلو منها ماء الشرب عادة

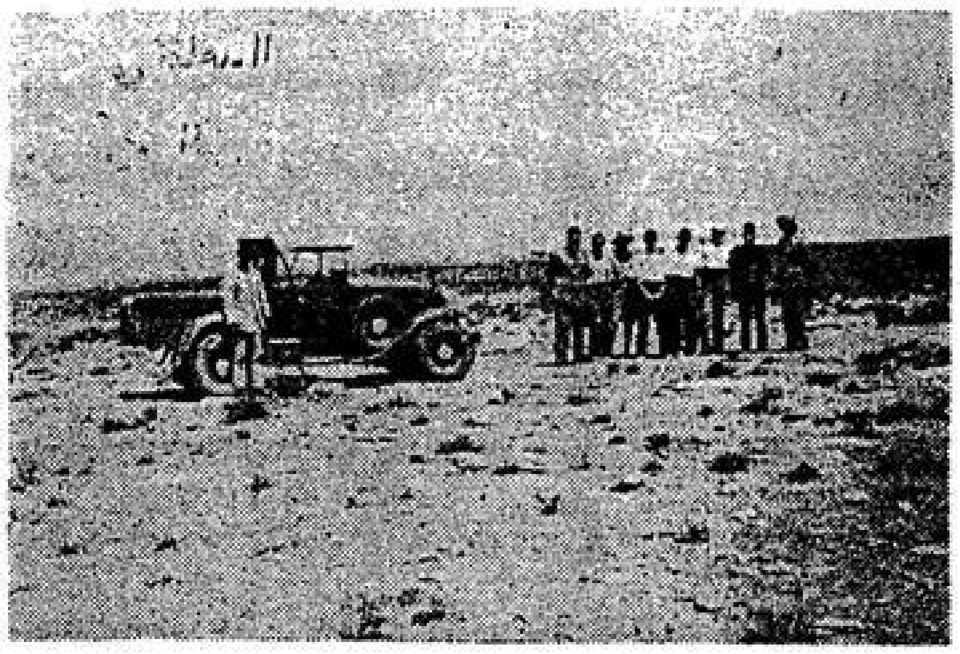
ويوم وصول الباخرة عندهم هو يوم (الملوخية) ، لأن الناس جميعاً يطبخونها لأنها أسرع الخضر تعرضاً لليبس والعطب ، ولقد خلقت الباخرة جو عمل وحركة غير عاديين وسط تلك الجهات الساكنة ، فقد تهافتت سيارات النقل والحمالون وبدأت العربات المعلقة الهوائيـة (Cable Cars) تشحن حاجات الجيش المعسكر فوق المرتفعات ، فترى العربات تجري معلقة على الأسلاك إلى قمة الجبل ثم تعود فارغة ، وحتى زوارق صيد الاسفنج تبتاع ماء الشرب لها من الطوافة ؛ والمنطقة غنية جدا بالأسفنج الجيد وأصحاب امتياز صيده طائفة من اليونانيين يفدون من بلادهم في موسم الصيد ومعهم زوارقهم ، وهم لا يفهمون من العربية شيئاً قط . أما أهل السلوم فمن فقراء الأعراب يعيشون عالة على الموظفين او خدماً لهم ، وترى خيامهم القليلة مبعثرة في سفح الجبل ، وهم يحصلون على مائهم العذب بطريقة عجيبة بسيطة ، فهم يحفرون الرمل بجوار البحر الى عمق نصف متر فينز الماء ويملأ الحفرة ماء لا بأس بمذاقه ، وهم في فقر مدقع وبؤس مبيد خصوصاً بعد أن اجدبت منابت الشعير إجداباً تاماً هذا العام . ولقد أثر ذلك في حالتهم الصحية والخلقية تأثيراً سيئاً ؛ وتلك فئة جديرة بعطف ذوي البر ، وقد تبرعت لهم الحكومة ببعض الغلال ويا حبذا لو ضاعفت احسانها لحفظت طائفة من سكان مصر من أن يلقوا بأنفسهم الى أحضان الطليان في حدود طرابلس مستسلمين كاسري البال ؛ ونساء العرب هناك سافرات لهن جمالهن الخاص في أرديتهن الحمراء ، وعند زواج إحداهن يجتمع الناس لتقدير المهر ويبدأ بنحو خمسين جنيهاً ، ثم لا يفتأ يتدخل شيخ منهم ويقول (وعشان خاطري) فينزل المهر إلى أربعين . ثم إلى ثلاثين ، وهكذا حتى ينزل الى خمسة جنيهات . ويكاد الفرح يقتصر على حفلات الرقص ، ولهم حركات في غاية الرشاقة والخفة ، وجل الرقص يوقع وفق تصفيق الجماهير ؛ ويغلب أن تكون الراقصة ويسمونها الحجالة من الأوانس اللاتي يرغبن في الزواج ، وهي ترقص وعلى وجهها قناع ، وليالي الفرح أربع ، وفي ليلة الزفاف تحمل العروس على جمل تحت هودج يسمونه (كرمود) ؛ وتمسك بالخطام الفتيات البكر تفاؤلاً ويقتدنها إلى بيت الزوج . ومن عاداتهم أن الفتاة إن طلبها أحد ذوي قرباها فضل على غيره حتى

ولو لم يكن كفؤاً لها ، وإن حصل مايخالف ذلك فرضت على المعتدى الدية التى يختلف قدرها باختلاف مكانة الفتاة

حدث مرة أن أجمل فتاة فى قبيلة المعابدة هناك طلبها كل فتيان قبيلتها فرفضت لأنها كانت تحب فتى من قبيلة أخرى ، وذات ليلة دبر ذلك الفتى أمر اختطافها ، فكانت الدية ألف جنيه . والعجيب أن سائر رجال القبيلة لابد أن يتعاونوا على جمع تلك الدية ودفعها وإلا لحقهم العار ولزمهم الحق جميعاً ، وأنت إذا مررت على (خيشة) من خيامهم وحييتهم وجب أن تعرج لتشرب الشاى . ولا بد من تقديمه ثلاث مرات : الأولى شايها ثقيل أسود مر لا يوضع به سكر قط ، والثانية أخف منه وأحلى ، والثالثة يقدم شايها وكأنه العسل وعليه النعناع ، ويدور السقى إلى اليمين مهما كان من أمر الجالسين ؛ وهم يدمنون الشاى إدماناً أثر على صحتهم ولو أنه أفاد من ناحية التطهير ضد بعض الأمراض .

وإذا اعتدى أحدهم على غيره وأصابه بسوء أرسل المصاب إلى (التـّطّـار) ، وهو يقابل الطبيب الشرعى عندنا لتقدير الدية ، وقوله نافذ على الجميع ، وتلك الدية تسمى (كبارة) ، والقاتل لا يقتل فى عرفهم متى دفع الدية التى يقضى بها المحكمون ، وهى حوالى مائتى جنيه فى العادة ، ويتعاون كل أغنياء القبيلة على دفعها

طفنا ببلدة السلوم فاذا بها قرية شبيهة بمطروح فى نظام بيوتها البيضاء الوطيئة ، على أنها تفوقها وحشة ، إذ يشعر الواحد فيها بأنه فى معزل عن العالم . تسلقنا المرتفعات فى طرق لياتها من الأعاجيب ، وكلما علونا بدا مشهد خليج السلوم رائعاً بديعاً ، وفوق الهضبة زرنا المعسكر وتوابعه فى أبنية بالحجارة ، فاخرة الانشاء ، لم أكد أصدق أنها أقيمت لجنودنا المصريين ، وهنا تعسكر أورطة مصرية بكامل رجالها ومعداتها ، وتشرف على الخليج إلى جانب المعسكر طابية قديمة أسسها عصمت التركى سنة ١٣٢٢ ، وعليها الطغراء العثمانية ، ويشغل القسم الأكبر منها اليوم السجن . ولقد أخذنا نشق تلك الصحارى المجاورة ، ومررنا ببعض الآبار الرومانية القديمة ، ومن أكبرها بئر وعرة نزلناها فاذا بها تجويف فى الصخر الهائل ، له شعاب ممدودة تحت الأرض فاذا ما أمطرت السماء سال الماء إليها خلال فتحات ضيقة وترشحت أوساخه مع الرمال الراسبة واستقى منها الناس . ثم سرنا حتى وصلنا الحدود الطليانية ، وهم يمدون على طولها أسلاكاً شائكة . وزرنا طابية



الأسلاك الشائكة على الحدود بين السلوم وطرابلس

(مساعد) التى كانت لهم وتنازلوا عنها لمصر عند تحديد التخوم بعد أن أخذوا هم جغبوب وما جاورها ، وتركوا لنا تلك الطابية ومسافة قدرها زهاء عشرة كيلو مترات حول السلوم . وعجبت جداً لما لم أجد من الاستعداد لدفع طوارئ الهجوم على تلك الناحية المكشوفة من حدودنا ، فعدد الجنود غير كاف ولم يزودوا من الأسلحة بشىء يدفع عنهم أذى ، وحتى معسكر المدفعية رأيته يضرب خيامه أسفل الخليج بعيداً عن المرتفعات ، لذلك يوجس الناس هناك خيفة هجوم العدو بين يوم وآخر . فهلا اهتمت وزارة حربيتنا بأمر تحصين ذلك الركن الهام من حدودنا فأمنتنا أخطاراً جسيمة وألقت شيئاً من مسئولية الدفاع عنا على عواتق أبنائنا المخلصين

قمت من السلوم عائداً إلى الاسكندرية فى الطوافة ، وكان أجرها زهيداً جداً ، إذ للموظفين جميعاً أن يدفعوا ربع الأجر فقط ، والأجر الكامل للذهاب والاياب خمسة جنيهات فى الدرجة الأولى ، وبتنا فيها ليلتين ، ثم دخلنا الاسكندرية فى باكورة الصباح

محمد ثابت

البريد الأدبي

مشاكل الشرق الأقصى — كتاب طريف عنها

في العهد الأخير لفتت مسائل الشرق الأقصى أنظار العالم ؛ وأثار توغل اليابان في الصين في بعض الدول التي تهتم بمجرى الحوادث في الشرق الأقصى شكوكاً ومخاوف جديدة ، وأبدت اليابان رغبتها جلية واضحة في الاستئثار ببسط نفوذها على الصين ومقاومة النفوذ الأوربي ، وما تزال مشكلة الشرق الأقصى جاثمة في الأفق تثير اهتمام السياسة الأمريكية ، والسياسة الروسية ، والسياسة البريطانية ؛ وقد صدر في أمريكا أخيراً كتاب عنوانه « سحب الحرب في آفاق الشرق الأقصى » . بقلم المحامي توم إيرلاند ، تناول فيه المؤلف مسائل الشرق الأقصى بإفاضة ، وذهب فيه إلى رأي جديد لا يبدو أنه متفق مع اتجاه السياسة الأمريكية الحاضرة . وخلاصة هذا الرأي هو أن أمريكا يجب أن تنفض يدها من التدخل في مسائل الشرق الأقصى ، وأن تترك الصين لمصيرها ؛ ويستند المؤلف في عرض رأيه إلى ما يأتي :

(١) أن التجارة الأمريكية في الشرق الأقصى لا تبرر هذا التدخل من حيث أهميتها

(٢) أن أمريكا مضطرة إلى إنشاء أسطول ضخم تكون نسبته للأسطول الياباني كنسبة ٥ إلى ٣ ، إذا أرادت أن تتدخل لمقاومة اليابان تدخلاً فعلياً ، وهذا يكلفها نفقات باهظة

(٣) وحتى لو سلمنا بأن في استطاعة أمريكا أن تنشئ مثل هذا الأسطول فانه لا يفيدها كثيراً ، بعد أن فرطت في جزائر الفيليبين ، وأصبح من المتعذر أن تتخذ منها قاعدة بحرية للعمل في المحيط الهادي

(٤) أن اليابان سائرة في طريق التوسع ، ومن حسن الحظ أنها وجدت في منشوريا (منشوكيو) مجالاً لنشاطها ، وفي ذلك ما يدفع تيار الخطر الأصفر عن أمريكا

وقد أريد بهذا الكتاب أن يصدر قبيل انعقاد المؤتمر البحري إذ ينتظر أن تطالب اليابان فيه بزيادة نسبة أسطولها نظراً لما تتطلبه حماية أملاكها الجديدة ، ولأن أمريكا ما زالت تطالب في الصين بسياسة الباب المفتوح ، وهي سياسة عتيقة أضحت لا تبررها الظروف

ويقرن المؤلف عرضه باحصاءات ووثائق اقتصادية كثيرة عن نشاط مختلف الدول ذات المصالح في الشرق الأقصى ، وإحصاءات عن نفقات الحرب ، وعن القوى البحرية ، وسير الهاجرة ، وسير المواليد ، ويثبت فيه كل المعاهدات التجارية ؛ ويتحدث طويلاً عن سياسة روسيا ونشاطها . والكتاب بموضوعه وتدليله يعتبر وثيقة هامة في التاريخ السياسي والاقتصادي المعاصر

محنة الصحافة الألمانية في ظل الارهاب الهتلري

من أنباء برلين الأخيرة أن جريدة « كرويتس تسيتونج » الشهيرة Kreuz Zeitung (جريدة الصليب) قد احتجبت واختتمت حياتها الصحفية الحافلة . وقد كانت « الكرويتس تسيتونج » من أعظم الصحف الألمانية وأقدمها ، وأعرقها في الهيبة السياسية ؛ وقد انشئت سنة ١٨٤٨ لتكون لساناً للحزب المحافظ الذي أنشأه البرنس بسمارك عميد السياسة الألمانية في القرن التاسع عشر ؛ وكان شعارها منذ نشأتها العبارة الشهيرة الآتية : « إلى الأمام مع الله ، في سبيل الملك والوطن . نحن الألمان نخاف الله ، ولا نخاف شيئاً آخر في العالم » ؛ وكان هذا الشعار ما يزال يطبع في صدر الصحيفة حتى أيامها الأخيرة أعني حتى ٣١ أكتوبر المنصرم وهو آخر أيام حياتها ؛ وكانت عند نشأتها تسمى « نوية بروسيشه تسيتونج » أو الجريدة البروسية الجديدة ؛ وقد اختطت لها منذ نشأتها نزعة بروسية محافظة تعبر عن آمال العسكرية والارستقراطية وكبار الملاك ؛ وتظهر صباحاً ومساء في حجم كبير وتفوق في الانتشار معظم جرائد برلين الكبرى مثل التاجبلات وجرمانيا ، والدويتشه الجمينة وغيرها ؛ وكانت ما تزال حتى العهد الأخير تتمتع بمركز حسن وذيوع لا بأس به ؛ ولكنها كانت تعاني منذ قيام الحكم الهتلري صعاباً جمة في التعبير عن آرائها ؛ وكانت من الجرائد القليلة التي لم تقبل أن تخضع لأغلال النازي ونظرياتهم ؛ وقد كان مصيرها الاغلاق والمصادرة منذ بعيد لو لم تكن تتمتع بتأييد نفوذ بعض

الهيئات العسكرية والمحافظة القوية ؛ ولو لم تكن تعتبر أثراً من آثار منشئها بسمارك . بيد أنها رأت أخيراً أنها لا تستطيع المضى فى رسالتها تحت تأثير الضغط والوعيد الذى يفرض على الصحافة الألمانية فى العهد الجديد ، ولهذا آثرت الاحتجاب من تلقاء نفسها . وهكذا تختفى الصحف الألمانية الكبرى واحدة بعد الأخرى وتنحط الصحافة الألمانية تباعاً الى عداد صحف الدعاية الحزبية . وباختفاء « كرويتس تسيتونج » ينهد ركن متين من أركان الصحافة الألمانية العريقة ، وتسجل ضحية صحفية جديدة لحكم الأرهاب السائد فى ألمانيا

مدينة للسينما فى انكلترا

كانت الأفلام الأمريكية قد اكتسحت بلدان العالم ، وكادت الصناعة السينمائية تصبح وقفاً على أمريكا وعلى هوليوود مدينة الكواكب الشهيرة ؛ ولكن كثيرا من الأمم تنبهت الى هـذا الخطر الذى يهدد صناعتها وثقافتها المحلية ، فنهضت تنشىء لها صناعة سينمائية خاصة ، وكانت بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وايطاليا فى مقدمة هذه الدول ، فشجعت صناعة الأفلام القومية ، ووضعت قيوداً مختلفة على عرض الأفلام الأجنبية . وقد قرأنا فى البريد الأخير أن انكلترا قد بدأت بانشاء مدينة خاصة للصناعة السينمائية على نمط مدينة هوليوود الأمريكية . وموقع هذه الضاحية الفنية فى دنهام من مقاطعة بوكنهام شير حيث تكثر المناظر الطبيعية البديعة ؛ ومساحتها مائة وخمسة وستون فداناً من الأرض ؛ وتبنى فيها الآن أبهاء التصوير (ستوديو) باشراف المهندس والرسام جاك أوكى ، وستكون أعظم أبهاء من نوعها فى القارة الأوربية ، وهى ثمانية سيكلف صنعها ٤٠٠ ألف من الجنيهات ، وسيكون فى كل منها مسرح مجهز بالألوان لا يضارعه أى مسرح فى أمريكا ، وسيجهز بمولد كهربائى يكفى لانارة مدينة كبيرة

وينتظر أن ينفق نحو مليونى جنيه سنوياً على صناعة الأفلام فى دنهام ، وأن تخرج كل عام ٢٤ فلماً من الأفلام العظيمة ، وستشترك فى العمل فيها شركتان أمريكيتان كبيرتان الى جانب شركات لندن الكبرى ، وينتظر أيضاً أن يهرع اليها عدد كبير من نجوم هوليوود

ولم ينته الى اليوم من المدينة السينمائية العظيمة سوى الهياكل الحديدية ، ولكن المنظور أن تنتهى بعد بضعة أشهر ؛ وتحتوى الأرض المختارة على غابات وأشجار ورياض وأنهار وشواطىء بديعة ؛ وستنشأ بها مكاتب ومطاعم وفنادق وكل ما يجب لتوفير الوقت والرفاهة لساكنيها من نجوم وغيرهم

مجمع اللغة العربية الملكى

تقرر أن يبدأ مجمع اللغة العربية الملكى دورته القادمة فى يوم الأربعاء ٢٠ من شهر شوال سنة ١٣٥٤ الموافق ليوم ١٥ من يناير سنة ١٩٣٦ ، وقد أرسلت سكرتارية المجمع رقاع الدعوة إلى الأعضاء فى مصر وفى الخارج . وقد استأنفت لجانه أعمالها بعد فترة الصيف ؛ وقد انعقدت مساء يوم الجمعة الماضى بدار المجمع لجان الآداب والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ؛ وستوالى جميع اللجان اجتماعاتها لتمهد ما سيجرى البحث فيه فى الدورة المقبلة ، وقد استدعت اللجان بعض الخبراء الفنيين للاستعانة بهم فى دراسة المصطلحات العلمية . هذا وستعجل إدارة المجمع باصدار الجزء الثانى من مجلته تمهيداً لاصدار الجزء الثالث منها ، بحيث يكون الجزءان بين أيدى الأعضاء فى مفتتح الدورة المقبلة

ذكريات عن أكابر الكتاب

ظهر فى لندن أخيراً كتاب طريف عنوانه : « الصلات » Contacts بقلم المستر كورتس براون . ومستر براون ليس كاتباً بمهنته ، ولكنه من أكبر « وكلاء الأدب » فى انكلترا ، وله صلات وثيقة بمعظم الكتاب الانكليز ؛ وقد تعاقد مع كثيرين منهم على حقوق كتبه . ويعرف مستر براون جيل الكتاب المنصرم معرفة وثيقة ، ويعرف الكثير عن أحوالهم وعاداتهم ومشاربهم ، وأساليبهم فى التفكير والكتابة ؛ وقد وضع كتابه المشار إليه متضمناً ما يعرفه عن كثيرين من أقطاب الكتابة فى أواخر القرن الماضى مثل توماس هاردى ، وهول كين ، وجورج مور ، والسير كونان دويل ، ولورانس وغيرهم . وكتب أيضاً عن بعض الكتاب الهواة مثل مستر لويد جورج واللايدى اسكويث وغيرهما . ونستطيع أن نستخلص من قراءة هذا الكتاب حقيقة مدهشة هى أنه وإن كان هؤلاء الكتاب يشتغلون دائماً بعالم التفكير والخيال ، فان بينهم رجالاً يحسنون فهم الأعمال التجارية والمالية ، ويحرصون على مصالحهم المادية حرصاً عجيباً . بيد أن الكاتب يروى لنا أيضاً أن بعض هؤلاء الكتاب كان يفرط فى حقوقه المادية تفريطاً مدهشاً ، ويضرب لنا مثلا بتوماس هاردى ، ويقول لنا إنه لم يتقاض عن حق تأليف روايته الشهيرة : « تحف شجرة الغابة الخضراء » سوى ثلاثين جنيها !

الكتب

البُحاثة اللغوية

عن قاعة البحث اللغوى بدار العلوم

٢ — القبس للانشاء العربى

تأليف: محمد رزق الدهشان | عبد الغنى الصاوى | المدرسين بالمدارس الثانوية

للأستاذ محمد سعيد العريان

— البحاثة اللغوية

فى دار العلوم اليوم نهضة موفقة ، يساهم فيها الشباب والشيوخ من أبناء هذه الدار التى قامت على العربية ستين عاماً ، فأحسنت القوامة ، ورعت الأمانة ، وأدت حق العلم وحق اللغة أو فى أداء ، وأثرت تأثيرها المبارك فيما ينتج الشعراء والكتاب من أدباء هذا الجيل ؛ وهى نهضة حكيمة ، بادية النشاط ، بادية الأناة ، تسير على سننها فى رفق وقوة ، وتمضى إلى غايتها فى حماسة ووقار ؛ فمن ثم لا تحاول أن تنسلخ جملة من ماضى التاريخ ، وهى تأبى كذلك أن تصمّ أذنيها عن دعوة الزمن إلى الابتكار والتجديد

وهذا أثر جديد ، هو مجْلًى من مجالى نشاطها الدائب ؛ تحاول به أن تثبت للحاقدين من خصومها ، والعاقِّين من بنيها ، أن عندها هى وحدها تلتمس الأسبابُ لحياة هذه اللغة حياةً تسكون بها بين اللغات ما كانت بينها فى تاريخها المجيد

ولقد أنشئت فى دار العلوم منذ أكثر من عام « قاعة البحث اللغوى » لتكون ميداناً حراً لكل ذى فكر جديد ، يتناول شأناً من شؤون اللغة . والعلم اليوم عرض وبحث ومذاكرة ، لا تلقٍّ وحفظٌ واستذكار ؛ من أجل ذلك أنشئت هذه القاعة فى دار العلوم ، غير مسبوقة بمثال لها تتخذه قدوة وتسير على نهجه ؛ على أنها قد أجدّتْ فأجْدَتْ ، واخترعتْ ففرعتْ ؛ وهذا كتابها الثانى « البحاثة اللغوية » يدل على جهد مشكور ، وعمل له ما وراءه

وهو نهج جديد فى فقه اللغة . وفقهُ اللغة عند القدماء أبوابٌ موضوعة ، تضم من أشتات اللغة كلَّ معنى إلى ما يشاكله ، وكل تعبير إلى ما يضاهيه ، وكل لفظ إلى ما يرادفه ؛ فهو عندهم معجم يرتِّب اللغة على أبواب المعانى لا على أبواب الحروف ؛ وإذ كانت اللغات تتطوّر ، وحاجات العصر تطلب حقها من كل لغة ، وأن تتعرف اسمها على كل لسان — كان همّ فقهاء اللغة من هذا الجيل أن يحاولوا الربط بين ألفاظ اللغة وحاجات العصر ، وأن يكشفوا عن أوجه المشاكلة بين كل اسم ومسماه وما يتصل به ، فى أبواب يضمونها ، وترتيب يخترعونه ، إلا أنه لا يخرج فى جملته ومعناه عن طريقة القدامى فى الوضع والترتيب

ولكن فقه اللغة شىءٌ غير الكلمات الجديدة ، وغير الجمع والترتيب والتبويب ، وغير النحت والاشتقاق والترجمة — وإن يكن أولئك هو كل ما نطلبه من فقه اللغة لنساير بها حاجات العصر ؛ إنما فقه اللغة أن نحاول الكشف عن أسرار اللغة ، وتفهم طبيعتها ، وفقه ألفاظها على حقيقتها وفى معناها الذى عناه الواضع الأول ؛ ثم البحث فى نشأة الكلمات ، وتاريخها ، واشتقاقها ، وتطورها ، وما استعملت فيه ودلت عليه من المعانى فى مختلف العصور ، وما صارت اليه وعرفت به فى لغة الأحياء ؛ ثم ما يهدى اليه هذا البحث مما تزيد به ثروة اللغة ، ويصحّ به أسلوب الكلام

وهذا هو ما رآه الأستاذ « محمد عبد الجواد » أستاذ فقه اللغة بدار العلوم ، فدعا طلابه إليه ، فهيأ لهم قاعة البحث اللغوى ، فكان من عملهم هذه البحاثة اللغوية

وهو كتاب دورىّ ، سبقته البحاثة الأولى إلى الظهور باسم : أنابيش لغوية

وهذه البحاثة كما يدلّ عليها اسمها والغرض منها هى خلاصة البحث اللغوى لطلاب دار العلوم فى السنة الدراسية الماضية بتوجيه أستاذهم ؛ ويبلغ الكتاب ثلثمائة صفحة ، ثلثاها مما اختير من بحوث الطلاب أنفسهم فى « رياضة لغوية فى قراءة القاموس المحيط » ؛ وقد نهج بهم أستاذهم منهجاً حسناً ، هو يصفه فى مقدمته لهذا الباب :

« . . . رأينا أن توزع عليهم أوراق من القاموس المحيط للبحث فيها ، واستخراج كنوزها ودفائنها ، كى يوجه النظر إلى استعمالها ، والانتفاع بها فى حركة التجديد اللغوى . . . وقد طلب إليهم قراءتها بإمعان وتدبر ، ووضع خط بالقلم الرصاصى تحت ما يصح أن يوضع لمسمى لم يعرف له اسم عربى ، أو كلمات يتوهم أنها عامية وهى عربيـة ، أو ما خرج به التحريف أو التصحيف عن عربيته الخ ، أو أية لفظة يرى أنها جديرة بالنشر . وإذا كان لأحدهم مقترح ، أو أراد التوسع فى بحثه ، شفع ما قرأ من الأوراق بتوضيح كتابى . . . »

ولقد كانت رياضة لغوية مثمرة ، تدل على جدوى هذا النهج الجديد فى دراسة فقه اللغة ؛ وإننا لنرى فيها جهد الطلاب ظاهراً قوياً ، وقد وفق الكثير منهم توفيقاً يدعو إلى الاعجاب والرضى ويبعث على كثير من الاطمئنان والأمل ؛ على أنه من التواضع أن يسمى كل هذا الجهد (محاولة) ؛ فما أغلو إذا ادعيت أنه قد أضاف إلى العربية ثروة جديدة ، وكشف عن دفائن تزيدها قوة وغنى

على أن فى الكتاب غير ذلك بحوثاً طريفة ، وأبواباً قيمة ، وطرائف من اللغة تروق الأدباء والمتأدبين . وإذا كان لنا أن نأخذ شيئاً على الكتاب ، فذلك أنه كان فى حاجة إلى العناية بترتيبه وتقسيم فصوله خيراً مما رُتِّب وقُسِّم ، ليتأتى للمستفيد أن يقع منه على ما يريد من غير عناء ، ولكننا نحب أن نعتذر عنهم من ذلك ، بأنهم أرادوه ليكون أشبه بسجل يصوِّر مجهودهم ، أكثر مما أرادوه كتاباً يتناوله القراء للبحث والانتفاع ، وإن كان هو عندنا لأكثر من ذاك

٢ — القبس للانشاء العربى

وهـذا كتاب آخر للانشاء العربى ، متين العبارة ، قوىّ الأسـلوب ، جميل التقسيم ، أنشأه مؤلفاه الفاضلان ليستعين به التلاميذ فى دروس الانشاء العربى ، فجاء وافياً بما يريدان من قوة السبك ، وحسن الأداء ، ودقة التقسيم

ولكننا نعود فنسأل عن مدى استفادة التلاميذ مما يسمونه « كتب الانشاء » ؟

ليس من شك فى أن تعليم اللغة تلقين ومحاكاة ، يهيئان التلميذ من بعدُ للخلق والابتكار ، ولكن وسائل التلقين ليست هى هذه الكتب التى توضع بين أيدى التلاميذ لغرض واحد ، هو أن يقرءوها فيحاكوها ، أو ينبشوها فيقتبسوا منها ، والتى لا ينظرون فيها إلا على نية الأخذ عنها ، والاستعانة بها على تجويد العبارة وصقل الكلام ؛ إنما ينبغى أن يلقن التلميذ من حيث لا نشعره أنه يلقن : بأن نحمله على القراءة فى كتب شتى ، ونبعث فيه الشوق الى المطالعة والنظر فى كل كتاب ، ونعوده حسن الاستماع لجيِّد الكلام ؛ فما يقبل التلميذ على مثل كتب الانشاء هـذه بقلبه وعقله ، بل بحافظته ؛ فمن ثم لا تراه ينظر فيها إلا ليسرق أو يقلد ، فيؤول ذلك إلى أن تكون كتابته أشبه بطبع الرواسم (الأكلشيهات) : عبارات محفوظة ، وربط سقيم ، وفكر بليد ؛ ثم هى تجعل التلميذ لا يحاول أن يطالع أو أن يقرأ ، إلا إذا طلب اليه أن يكتب أو أن ينشىء ، للمدرس ، أو للامتحان ؛ لأنه لم يتعود أن يقرأ ليلذ نفسه ويرضى عاطفته ، بل ليستعين على أداء تكليف ثقيل . . . !

وهـذه الكتب الكثيرة للانشاء ، أثر من ايحاء مناهج الدراسة ونظم التعليم فى بلادنا ، هذه النظم التى تقيس العلم بعدد الناجحين ونسبة النجاح ، ومن ثم كانت أكثر محاولات المدرسين فى مدارسنا للوصول إلى هذه الغاية ؛ أما تربية الملكات ، وصقل العقل ، وإرهاف الحس ، فذلك شىء قلما ترى من يحاوله منهم ، ولعل لهم عذراً كبيراً من ذاك . . . !

ولقد يكون من الخير الكثير لو أن المؤلفين الذين يحاولون تأليف الكتب للانشاء اتجهوا فى ذلك اتجاهاً آخر ، فوضعوا هممهم وجهدهم فى تأليف كتب أخرى مما يروق التلاميذ صغاراً وكباراً ، ويشوقهم إلى قراءته غير مكرهين عليه ، مثل : القصص ، والرحلات المشوّقة ، وغيرها ، ثم ليجعلوا فى ثنايا ذلك ما يريدون أن يضيفوه إلى ثروة التلاميذ اللغوية والعلمية . فلعلهم إن فعلوا ذلك يكونون قد أضافوا إلى اللغة ثروة جديدة من أدب الأطفال ، وعوّدوا الأطفال أن يقرءوا التماساً للذة العقلية ومتاع الروح ، بدل أن يقرءوا رغبة فى النجاح وحسب

وما نعنى بهذه الكلمة — هـذا الكتاب الجديد وحده ، فلعله من خير ما أُلف فى موضوعه ، وإنما هو رأى نحب أن يسمعه كل القائمين على تعليم الانشاء فى المدارس المصرية ما ؟

محمد سعيد العريان